سلسلة دراسات 17

# في رحاب السيرة النبوية

## دراسة في أحداث السيرة ووقائعها وأحكامها وحِكمها



**الدكتور فؤاد بلمودن**

أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

بالجديدة جامعة شعيب الدكالي المغرب

MANAR AL ISLAM

مفاد

مركز فاطمة الفهرية

للأبحاث والدراسات

كتاب: في رحاب السيرة النبوية، دراسة في أحداث السيرة ووقائعها وأحكامها وحِكمها
تأليف: الدكتور فؤاد بلمودن
الناشر: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)
ردمـك: ISBN : 978-9920-576-02-4
الطبعة الأولى: 1442هـ / 2021م
التدقيق والإخراج الفني: www.islamanar.com

# في رحاب السيرة النبوية

## دراسة في أحداث السيرة ووقائعها وأحكامها وحِكمها

**الدكتور فؤاد بلمودن**

أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

بالجديدة جامعة شعيب الدكالي المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

إلى نبي الرحمة والحكمة...إلى سيد الخلق وداعية الحق...

إلى الصادق الأمين... المتحنث في جبل النور بغار حراء... والمعلم في دار الأرقم... والداعية المحاصر في شعاب مكة ومهاد الطائف... والمجاهد في ساحات بدر وأحد...

إلى من ألقي عليه القول الثقيل وتنزل الوحي على قلبه ليشع نوره على الأكوان إشراقا وهداية وتحررا...

إلى من خاطبه الحق سبحانه بواسطة الملك جبريل خطابا جامعا بين أنوار المنقول وإشراق المعقول ندبا إلى قراءة الجمْع في مبتدأ التنزيل:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَق * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَم * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [سورة العلق: 1-5]

إلى من أرجو شفاعته ووصاله وقربه وجواره في الفردوس الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أهدي هذه الصفحات مع الاعتذار عن كل ما يشوبها من نقص أو غفلة أو تقصير.

# تقديم

لقد درج المسلمون على الاحتفاء بالسيرة النبوية الشريفة، واتخاذها منهلا عذبا وعظيما عبر الأعصار، وفي سائر الأمصار، فتعددت تصانيفهم حولها وتنوعت، بدءا بمدونات المغازي وكتاب ابن إسحاق، ثم ابن هشام، ومرورا بالسهيلي والقاضي عياض وابن كثير والسمهودي وابن الجوزي وابن القيم، وصولا إلى كتّاب السيرة المعاصرين، أمثال: رمضان البوطي، والمباركفوري والندوي والغزالي، والغضبان، وغيرهم كثير.

ورغم أن هذه المصنفات تعد بالمئات، فإن لكل منها طعمه الفريد، ومنهجه الخاص باختلاف طرائق التناول وأهدافها، فكان منها ما استهدف المغازي والمواجهات العسكرية، وكان منها ما تتبع تسلسل الأحداث المرتبطة بالحضرة النبوية قبل البعثة وبعدها عبر الجمع والتدوين، ومنها ما انصب على تمحيص هذه الروايات في حد ذاتها، بينما رامت مؤلفات سيرية أخرى إبراز خصال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأوصاف الذات الشريفة الخلقية والخلقية، نحو «الشمائل المحمدية» للترمذي، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم» للقاضي عياض...، واتجهت معظم التآليف الحديثة، فضلا عن الإحاطة بأحداث السيرة وملابساتها، إلى استنباط العبر والدروس المستقاة منها قصد الاسترشاد بها في واقع المسلمين المعاصر، ومنها المكتفية باستخلاص التوجيهات التربوية أو الحركية أو السياسية أو التنظيمية أو العلمية، وغير ذلك.

ومهما يكن؛ فإن روضة السيرة النبوية الفيحاء، وشجرتها الوارفة الظلال، ما فتئت تشكل موردا وموئلا للمسترشدين بالهدي المحمدي، والمتعلقين بالجناب النبوي، والهائمين في عشقه الأبدي.

ولا غرابة في ذلك، ما دامت السيرة النبوية متعلقة بصاحب الشريعة، ومبلغ الوحي عن رب العالمين، من اختاره الله تعالى مسكا لختام المرسلين، وجعله سراجا منيرا وقمرا مضيئا للتائهين، فكان هادي الأمة ومخرجها من الظلمات إلى النور، وقائدها في وجه الطغاة

والمتجبرين، ومنقذها، دنيا وأخرى، من الهلاك المبين، فتربع على عرش أفئدة المحبين، وسلب ألباب النبهاء الصادقين.

ومما جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) [سورة الأحزاب: 21]. هذه الأسوة الحسنة كانت في زمن الصحابة ماثلة أمامهم، متحركة بينهم، يستنيرون بتوجيهاته، ويستفسرونه عما أشكل من أمورهم، ويمتثلون أوامره ونواهيه، لكن اللاحقين من أجيال المسلمين، المستمسكين بتعاليم دينهم، ظل كتاب الله نور دربهم، وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم الفعلية والقولية والتقريرية مصدرا ملهما لاستقاء الأحكام في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وسائر أحوالهم. ولم ينفك ذلك عن تحري أخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم ووقائع بعثته، ومسار دعوته، وتربيته وتعليمه، وأسس بناء دولته، وأنباء حروبه وسلمه، وقضائه وعدله، وإدارته واقتصاده، وغير ذلك مما ميز ظهور الدعوة الإسلامية، ورافق تغلغلها وانتشارها بمكة والمدينة وجزيرة العرب.

لقد كانت تلك الأحداث ملهمة للمسلمين عبر الأزمان، وبلسما لقلوبهم يتناقلونها جيلا بعد جيل، استصحابا لمدلول الآية الكريمة: ((وذكرهم بأيام الله)) [سورة إبراهيم: 5].

من هذا المنطلق، فإن الكتابة في السيرة النبوية لا تنحصر في عصر دون آخر، ولا ينقضي الإلمام بأطرافها ومعانيها وعِبرها ومختلف أبعادها.

وأحسب أن كتاب أخي وزميلي وصديقي الدكتور فؤاد بلمودن الموسوم بـ: «**في رحاب السيرة النبوية: دراسة في الأحداث والوقائع والأحكام والحكم**»، يسير على المنوال ذاته، ويفتل في الحبل نفسه، ويمتح من المشكاة عينها. صاغه في قالب تعليمي ممتع وسلس، وراعى فيه الاختصار والتبسيط، واستجلى من خلاله أبرز الأحداث وعمدتها، منبها لنفائسها وجليل مقاصدها، مستهلا عمله بجملة من القواعد والإضاءات المنهجية. وبهذا العمل يكون الكاتب قد وفّر على الباحثين في السيرة النبوية الوقت والجهد عبر تمكينهم من زبدة وقائعها جاهزة، واضعا إياها في متناول الراغبين في استكشاف معالمها وحقائقها. وهو، من غير شك، عمل مفيد ونافع، خاصة لطلاب الدراسات العليا، وأرجو صادقا أن يكون خطوة أولى ولبنة أساس ضمن تآليف أخرى تسبر جوانب إضافية من مكنونات السيرة النبوية العطرة، وأرى صاحب الكتاب جديرا بهذه المهمة وأهلا للقيام بها على أحسن وجه.

وأستغل هذه المناسبة لأتوجه له بالشكر الجزيل على مبادرته الطيبة هذه، وعلى نشاط همته، وسمو طموحه الذي دفعه لاسترخاص جهود مضنية، ومكابدة الليالي، قصد إخراجها لحيز الوجود.

وفي الختام، أسأل الله تعالى أن يوفق الدكتور فؤاد بلمودن لمزيد من الإبداع والعطاء، وأن يبارك مساعيه العلمية، ويتقبلها منه، وأن يجعل التوفيق حليفه والسداد نصيبه، وأن يلهمه الرشد والصواب ويجعل حاذيه قوله تعالى: ((عسى ربي أن يهديني سواء السبيل)) [سورة القصص: 22].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبد الباسط المستعين

أستاذ التاريخ والحضارة

جامعة محمد الأول - وجدة

# مقدمة

تعدّ السيرة النبويّة واحدة من أعظم سير التاريخ البشري على الإطلاق، إذ تدور وقائعها حول حياة النبي محمد صلّى الله عليه وسلم، وما عرفته من أحداث ومواقف، وقد كان اهتمام المسلمين بالسيرة النبوية كبيرا، إذ عملوا على العناية بها رواية وتدوينا وتنقيحا، ما أسهم في حفظها وتبليغها للأجيال اللاحقة قصد الاستفادة منها والانتفاع بها، بالنظر لأهميتها العلمية والعملية للمسلمين جميعا.

ولا تقتصر السيرة النبوية الشريفة على سرد الأحداث والمواقف المتعلقة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل تعمل على سرد وقائع وقصص، تتعلق بحياة الكثير من الأشخاص الذين كانوا جزءا من الواقع الاجتماعي والتاريخي لمجتمع السيرة النبوية، سواء كانوا من أصحابه صلى الله عليه وسلم ورفاق دربه، أو من خصومه وأعداء دعوته، فكلّهم يشكّلون جزءا من مشهد تاريخي يحبل بالدروس والعبر والمآثر والمواقف المشهودة.

فالمسلمون اليوم بحاجة ماسة للرجوع إلى السيرة النبوية قراءة واستيعابا واقتداء وتمثلا لقيمها السامية، على ضوء متطلبات العصر وتحدياته، للإسهام في نهوض الأمة، واستعادتها لرقيها وشهودها الحضاري في العصر الراهن.

ويأتي هذا المؤلف الموسوم ب: «**في رحاب السيرة النبوية**» تتويجا لحصيلة جملة من المحاضرات والدروس في السيرة النبوية، ألقيتها على طلبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي بالمغرب، وعلى طلبة المعهد الأوربي للعلوم الإسلامية بأوربا، منذ الموسم الجامعي 2018/2017، وقد شاء المولى سبحانه، بعد استخارة واستشارة، أن أتفرغ للعناية بها تنقيحا وترتيبا وتصنيفا، ابتداء من صيف سنة 1439هـ الموافق لسنة 2018م، حتى لا تظل محاضرات متفرقة، ومباحث وأوراقا متناثرة، سرعان ما يطويها النسيان والضياع، وذلك قصد الإسهام في التأليف حول السيرة النبوية، وتمكين الطلبة والباحثين من محتوياتها، دون ادعاء التميز والجدة، التي هي طلبة كل باحث، ومقصد كل طالب.

وقد كان عملي فيه من الناحية المنهجية، هو المزاوجة بين نوعين من الدراسة:

الدراسة الوصفية: من خلالها يتم استيفاء تتبع أحداث السيرة ووقائعها البارزة، وفق تسلسلها التاريخي المعهود في كتب ومصادر السيرة، مع توخي الإيجاز والاختصار والبعد عن التطويل والإطناب.

- الدراسة المنهجية: ومن خلالها يتم لفت النظر إلى ما تنطوي عليه أحداث السيرة النبوية من دروس وعبر، وما تحبل به من أحكام وفكَر، تتعلق بفقه السيرة وفكرها، والتنبيه على بعض القضايا الإنسانية والظواهر الاجتماعية لأجل الدراسة والتفكر والاقتداء، من قبيل: حضور المرأة في السيرة، وحضور بعض الفئات في السيرة (المنافقين، اليهود، الأعراب) أو بعض الشخصيات المؤثرة في أحداث السيرة تأثيرا إيجابيا أو سلبيا، والتنبيه على تدبير ثنائية الغيب والأسباب في السيرة، وأثر عدم فهمها في تعطيل مسيرة المسلمين، وأهمية حضور التخطيط الاستراتيجي في السيرة، ثم مظاهر التربية النبوية على القيم الإيمانية والأخلاق الإنسانية وأثرها في بناء الأفراد والمجتمعات...

وقد جريت في تقسيم مباحث الكتاب، وفق منحى يستحضر أصول الدراسة الأكاديمية على الطريق المعهود في مؤلفات السيرة النبوية، وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: مدخل عام لدراسة السيرة. تناولت فيه تعريف السيرة وأهميتها وخصائصها ومصادرها.

القسم الثاني: حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة.

تم التركيز فيه على مظاهر العناية الإلهية بنبيه صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى بعثته، وإدراك تجليات هذه الصناعة على العين الربانية، مع استعراض حالة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وأثنائه.

القسم الثالث: من البعثة إلى الهجرة.

يتم فيه تناول مراحل الدعوة الإسلامية في مكة، وصمودها في وجه قريش وصبر النبي وأصحابه في وجه مخططات قريش ومؤامراتهم.

القسم الرابع: مرحلة توطين الدعوة، يتم فيه الوقوف مع مظاهر من جهاد البناء، عبر دراسة جهود النبي صلى الله عليه وسلم في البحث عن ملاذ آمن للدعوة الإسلامية خارج مكة، والتخطيط للهجرة، ووضع أسس بناء المجتمع الجديد بعد الهجرة.

القسم الخامس: من بدر إلى الأحزاب: الدعوة تدافع عن نفسها.

يتم فيه دراسة صمود الدولة الإسلامية في وجه العدوان الخارجي من قبل قريش، وباقي قبائل العرب، وصمودها في وجه الدسائس والمؤامرات الداخلية، من قبل المنافقين واليهود، وما اتسمت به هذه المرحلة من نشاط سياسي داخلي، ونشاط عسكري خارجي.

القسم السادس: من الحديبية إلى فتح مكة، الدعوة تشق طريقها نحو النصر المبين.

تم التطرق في هذه المرحلة لمظاهر انتصار الدعوة وانتشارها بشبه الجزيرة العربية، وتحولها نحو الأفق العالمي، لتكون دعوة للإنسانية جمعاء.

أما من حيث توثيق المادة العلمية، فكان الحرص قدر المستطاع على تقديم النصوص والوقائع المثبتة في المصادر، وعلى رأسها صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وباقي كتب الحديث، ثم تهذيب السيرة لابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتقديمها على سواها من المراجع اللاحقة، مع الاستمداد من محققي المتأخرين كابن القيم في زاد المعاد، والاستفادة من المعاصرين: كنور اليقين للخضري، وفقه السيرة للفاضلين: محمد الغزالي، وسعيد رمضان البوطي، وأما في تحقيق وترجيح بعض المعطيات التاريخية المتعلقة بعصر السيرة النبوية فكثيرا ما يقودني البحث إلى الاطمئنان لموقف صفي الرحمن المباركفوري في الرحيق المختوم، ومحمد سليمان المنصور فوري في كتابه رحمة للعالمين.

فالله -جل جلاله وعز ثناؤه- أسأل، أن يجعله عملا صالحا، وعلما نافعا، وأن يتجاوز عني ما كان فيه من السهو والخطأ والتقصير، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

# القسم الأول

## مدخل لدراسة السيرة النبوية:
## أهميتها وخصائصها ومصادرها.

## أولا-أهمية السيرة النبوية والغرض من دراستها:

السيرة لغة: هي السنة أو الطريقة أو الحالة التي يكون عليها الشيء، قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾[1]، أي: حالتها التي كانت عليها.

أما المعنى الاصطلاحي: فيقصد به ذكر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال والتقريرات -حقيقة أو حكما- والصفات الخُلقية والخَلقية، وأحواله وحركاته وسكناته في اليقظة أو المنام، وتشمل السيرة فترة ما قبل ولادته صلى الله عليه وسلم، لارتباطها بميلاده الشريف، كما تشمل حال العرب قبل ولادته، لاسيما ما يفيد في دراستها وفهمها.

وليس الغرض من دراسة السيرة النبوية مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، وسرد ما طرف أو جمل من القصص والأحداث، فلا ينبغي أن تعتبر دراسة السيرة النبوية من جملة الدراسات التاريخية على النمط المألوف في الدراسات التاريخية، شأنها شأن الاطلاع على سيرة خليفة من الخلفاء، أو عهد من العهود التاريخية الغابرة، وإن كانت السيرة جزءا من التاريخ الإسلامي، بل هي منطلقه وأساسه، وإنما الغرض منها، أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته صلى الله عليه وسلم، بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكاما مجردة في الذهن. أي: إن دراسة السيرة النبوية ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية الكاملة في مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم[2].

ويمكن أن نجمل الحديث عن أهمية السيرة النبوية والغرض من دراستها في العناصر الآتية:

-التمكن من المعرفة والفهم الدقيق لشخصية صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وحياته وما تزخر به من أحداث ووقائع، والظروف التي عاش فيها، سواء قبل الرسالة أو بعدها، فيتعرف على نسبه الشريف، وقرابته وولادته، ونشأته وحياته الاجتماعية، وأخلاقه وأدبه، وما كابده في سبيل الدعوة من محن وشدائد، إلى أن نصره الله تعالى على

1 -سورة طه:21.

2 -سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الفكر للنشر والتوزيع، دت، ص17.

أعدائه وأيده بالفتح المبين، وبذلك يجد فيه المسلم القدوة والمثل الأعلى في كل مناحي الحياة وشؤونها، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[1]، وتتمثل معالم هذه القدوة والأسوة في كون السيرة النبوية تجسيدا حيا لمبادئ الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تطبق في عالم الواقع...فالمبدأ النظري يُرى ماثلا قائما في شخص صاحبه، وهذا ما نجده في السيرة النبوية، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطبق تعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تطبق في عالم الأحياء والبشر، وذلك في جميع أحواله وظروفه، نوما ويقظة، سلما وحربا، جدا ومداعبة، غضبا ورضى، فردا وجماعة[2]...

-تحصيل المسلم أكبر قدر من المعرفة الإسلامية الصحيحة، سواء ما يتعلق منها بالعقيدة والأخلاق والسلوك، أو الأحكام والشرائع، فقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم صورة مجسدة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه.

-التعرف على مراحل تطور الدعوة الإسلامية، انطلاقا من نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء، حيث نزل قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾[3]، مرورا بقوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾[4]، إلى أن حل موعد الهجرة النبوية: ﴿**إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا**﴾[5]، إلى أن عمت الدعوة الإسلامية وملأت الآفاق.

فكانت السيرة النبوية تجسّد خطا صاعدا للتطور التاريخي للدعوة ضمن إمكانيات البشر وفي حدود طاقتهم وقدرتهم، فرغم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قلبه مفعما بالإيمان واليقين بتأييد الله له، ورغم ما كان يظهر بين ثنايا سيرته من معجزات باهرة، إلا أنه كان يأخذ للأشياء عدتها ويتخذ للأمور أسبابها، فنهج استراتيجيات مختلفة وخططا متضافرة لنصرة دعوته تتناسب مع كل مرحلة من مراحل الدعوة، «فسلك طريق السرية،

1 - سورة الأحزاب: 21.

2 - فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار القلم، دمشق، ط3، 1431هـ- 2010م، ص32.

3 - سورة العلق: 1-2.

4 -سورة الحجر: 94.

5 - سورة التوبة: 40.

ثم جهر بدعوته فلحقه الأذى والسوء، ثم كانت له جولات مع خصومه في بعضها فاز وانتصر، وفي بعضها نالوا منه عليه الصلاة والسلام، وكان في كل ذلك يكافح في سبيل المبدأ كأي صاحب مبدأ[1].»

-السيرة النبوية تعين على فهم معاني القرآن الكريم وإدراك مقاصده، فكثير من آيات القرآن إنما تفسرها وتجليها الأحداث والمواقف التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم. فدراسة السيرة النبوية تحدد لنا الإطار العام للآيات القرآنية، ومواضع نزولها ومواقع دلالتها، فالسيرة لها تعلق مباشر بآيات القرآن الكريم، وتسير على ضوء هديها وإرشادها، بل إنها تطبيق مباشر لهدي القرآن، فكثير من آيات القرآن يصعب فهمها إن لم نعرف ظروف وملابسات نزولها، كما في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيم**﴾[2]، فلا يمكن فهم هذه الآية بدقة مالم نعرف ظروف نزولها عقب غزوة بدر الكبرى وقصة الأسرى، والجدال الذي نشب بشأنهم بين الصحابة عندما استشارهم الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

وإضافة إلى إفادة السيرة النبوية في أسباب النزول، فإنها تفيد أيضا في تحديد الناسخ والمنسوخ وما قد يترتب عن ذلك من أحكام.

-إفادة السيرة النبوية في بيان أسباب ورود الحديث، من خلال تحديد تاريخ صدور أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، مما تكون له فائدة كبيرة في فهم السنة، وإزالة التعارض الذي قد يحدث بين الأحاديث التي صدرت في سياقات ومواطن مختلفة، كما تفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ في السنة الذي تتوقف عليه الكثير من الأحكام الشرعية.

-تزويد المعلم والداعية والمربي بنماذج حية من طرائق التربية والتعليم، فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم معلما ناصحا، ومربيا فاضلا، لم يأل جهدا في تلمس أجدى الطرق الصالحة في التربية والتعليم في مختلف مراحل دعوته... فحياته صلى الله عليه وسلم تقدم لنا نماذج سامية للشاب المستقيم في سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه. كما تقدم النموذج

---

1 - فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، مرجع سابق، ص39.

2 - سورة الأنفال: 67.

3 -المرجع نفسه، ص40.

الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته. ورئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة. والزوج المثالي في حسن معاملته، والأب في حنو عاطفته، مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من الزوجة والأولاد. والقائد الحربي الماهر، والسياسي الصادق المحنك، والمسلم الجامع -في دقة وعدل- بين واجب التعبد والتبتل لربه، والمعاشرة الفكهة اللطيفة مع أهله وأصحابه[1].

فلا ريب إذا، أن دراسة السيرة النبوية تروم كل هذه الأغراض العقدية والتربوية والعلمية، فالسيرة النبوية هي منهاج حياة للفرد والمجتمع، ومعين رائق غض يستلهم منه المسلم الفهم السديد للشريعة الإسلامية كما جسدتها حياة خاتم الأنبياء وسيد الخلق أجمعين.

## ثانيا-خصائص السيرة النبوية:

تشتمل السيرة النبوية على الكثير من الخصائص والمزايا، إذ تنطوي دراستها على متعة العقل وسلوة الروح والقلب، ما يجعل دراستها ضرورية لكل باحث في علوم الشريعة أو داعية مصلح، فمن خلالها يستلهم المصلحون المنهاج النبوي في التربية والدعوة والإصلاح، كما يستمدون الإرادة والصبر على الشدائد والمحن.

ونجمل فيما يأتي أهم خصائص السيرة النبوية:

**1-الصحة وتوثيق الوقائع والأحداث:** تعتبر السيرة النبوية أصح سيرة تؤرخ لحياة نبي مرسل، أو عظيم من العظماء المصلحين على مر التاريخ. فقد وصلت إلينا السيرة النبوية من أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا، مما يرتفع معه الشك في وقائعها وأحداثها، ويجعلها مصدر ثقة للدراسين وموضع اطمئنانهم، كما يجعلها بمنأى عما يشوب كتب التاريخ وقصص الأنبياء السابقين وسير العظماء من المبالغات والأساطير التي لا يصدقها العقل السليم.

وقد أثبتت الدراسات المتعلقة بالأديان الكثير من التزييف والتحريف في قصص الأنبياء السابقين، ومنهم قصص نبي الله موسى التي يتداولها بنو إسرائيل، بل حتى التوراة لم تكتب الكثير من أسفارها في زمن موسى، وإنما كتبت بعد ذلك بزمن طويل.

---

1 -سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، مرجع سابق، ص18.

وكذلك الإنجيل، تجمع الدراسات المتعلقة بمقارنة الأديان، أن نسخه دونت بعد المسيح بمئات السنين، وتم إقرار بعضها من قبل الكنائس بدون مسوغ علمي تطمئن إليه النفوس، فهي لم ترو بسند متصل ولا عرف كتبتها وناقلوها، ولذلك فإن سيرهم اعتراها الكثير من الكذب والتحريف والمبالغات والمغالطات، التي انعكست على التدين اليهودي والنصراني، وأخرجته عن روح الرسالة السماوية الموحدة، ونأت به عن هدي الفطرة السليمة وأخلاق الوسطية والاعتدال.

وإذا كان هذا الحجم من التزييف والتحريف قد وقع في سير الأنبياء، من أصحاب الديانات المنتشرة في العالم، فإن حصول ذلك أوكد في سير الحكماء والفلاسفة وأصحاب الملل والنحل الأخرى، أمثال بوذا وكونفوشيوس وزادشت، فما يتم تداوله من سيرهم ليس له أصل معتبر في نظر البحث العلمي، بل مجرد أخبار وأقاصيص تلقفها الأتباع من الكهان، ويزيد عليها كل جيل حسب ما تقتضيه الحاجة لإقناع الأتباع وترسيخ المعقدات، بما هو من قبيل الخرافات والأساطير التي لا يقبلها عقل سليم متحرر من الجهل والتعصب الأعمى لتلك الديانات.

ومن هنا فإن المقارنة العلمية السديدة تثبت أن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي أصح السير وأقواها ثبوتا متواترا في مجمل وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى.

**2-الوضوح:** تتميز سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالوضوح في أحداثها ومراحلها، منذ زواج والده عبد الله بأمه آمنة، وولادته صلى الله عليه وسلم وطفولته، وشبابه ثم كهولته، ورحلاته وأسفاره قبل النبوة، وحياته بعد النبوة والمراحل التي مر بها.

فهذا الوضوح الذي اتسمت به حياة خاتم الأنبياء جعل بعض المستشرقين الغربيين يقول: «إن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس»، فليست هناك مرحلة معينة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم شكا الدارسون عبر التاريخ من غموضها أو انبهام وقائعها، بل إن حياته صلى الله عليه وسلم كانت كالكتاب المفتوح يقرأ الدارس صفحاته من أي المواضع شاء، فيجد فيه كمال الشخصية الإنسانية في أسمى صوره، وصدق معجزة النبوة في أبهى تجلياتها، كما يجد فيه القدوة والمثل الأعلى في الحياة.

وهذا الوضوح في سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يتحقق في سيرة نبي من الأنبياء ولا عظيم من العظماء، بل حتى سيرة المسيح عليه السلام لا تذكر الأناجيل إلا النز القليل عن حياته وطفولته، لا يرقى مطلقا لما تقدمه مصادر السيرة النبوية من التفاصيل الدقيقة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وشخصيته الفريدة، والتي تشمل مأكله وقيامه وقعوده، ولباسه وهيئته ومنطقه، ومعاشرته لأهله وأصحابه.

**3-الو اقعية:** تتناول السيرة النبوية شخصية إنسان أكرمه الله بالنبوة والرسالة، دون أن تخرجه عن حدود إنسانيته وبشريته، أو تضفي عليه أوصاف الألوهية الخارقة على شاكلة الملل الأخرى، فيلفي الدارس سير أصحابها مليئة بالأساطير عن أنبيائها وحكمائها، ما يجعل أصحاب هذه السير أبعد ما يكون عن القدوة والمثل الأعلى للإنسان في الحياة، فخاصية الواقعية في السيرة النبوية من ثمارها الأساسية أنها تعطي صورة موضوعية وافية عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، بوصفه إنسانا بلغ منتهى الكمالات البشرية في خلْقه وفي خلُقه، وذلك ما يجعله أهلا للاقتداء والتأسي، لكل من يسعى للحياة الإنسانية الكريمة ويرجو الفلاح في الدار الآخرة، من الأجيال البشرية المتعاقبة.

**4-الشمولية:** تتسم السيرة النبوية بشمولها لحياة النبي صلى الله عليه وسلم من مبتدأ حياته إلى لحاقه بالرفيق الأعلى، فتكون بذلك شاملة لكل مناحي الحياة، فهي تتناول شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الشاب الموصوف بالصدق والأمانة، والزوج العطوف، والأب الحنون، كما تحكي شخصية النبي الداعي إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ورئيس الدولة الذي يسوس شعبه بالحلم والعدل والحكمة والشورى، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي، الذي يقوم على تربية أصحابه بالحال قبل المقال، فيتعلمون منه مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وجميل الخصال والخلال.

فالسيرة النبوية شاملة لكل مناحي الحياة، ما يجعلها مصدرا للاقتداء والائتساء في كل القضايا الإنسانية.

وهذا الشمول في القدوة لم يتحقق لأي نبي من الأنبياء السابقين أو عظيم من العظماء اللاحقين، فقد يكون بعضهم قدوة في مجال دون آخر أو في خلق دون سواه، فيكون قدوة في الشجاعة أو الصبر أو الحنكة السياسية أو التدبير الاقتصادي...

لكن السيرة النبوية تقدم قدوة شاملة كاملة وافية لأعظم شخصية في التاريخ الإنساني بلغت منتهى الكمالات الآدمية، وهي شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين.

**5-الصدق:** تعد الوقائع والأحداث التي تقدمها السيرة النبوية دليلا كافيا على صدق الرسالة المحمدية، فهي تقدم لنا سيرة النبي أو «الإنسان الكامل»، الذي انتقل بدعوته من محنة إلى محنة، ومن نصر إلى نصر، ليس على طريق المعجزات والخوارق، بل على طريق الدعوة والإقناع والتخطيط والكفاح، بما ينطوي عليه ذلك من محن وما يستبْطنه من صنوف الأذى. فتدرّج من حال الضعف إلى حال القوة، بفضل إحكامه اتباع السنن والتزامه الأسباب، فكان من حكمته أن يُقدِم حين ينبغي الإقدام ويحجم حين يستدعي الأمر الإحجام، لكن مسار دعوته كان دائما في خط صاعد لا يتقهقر ولا يتراجع.

وبفضل هذه الحكمة النبوية والتوفيق الإلهي في القيادة وسياسة الأمور دانت له شبه الجزيرة العربية، وتحول أهلها في ظرف يسير من عبادة الأوثان والعادات الفاسدة، إلى توحيد الله تعالى والالتزام بشرائع الدين وأخلاقه السمحاء، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ظلت سيرة النبي الكريم نبراسا لكل الأقوام والشعوب، عربا وعجما، ومشرقا ومغربا، إذ وجدت فيه القدوة والمثل الأعلى، فدخل كثير منها في دين الإسلام من غير قهر أو غلبة، بل محبة لله ولرسوله الصادق الأمين.

وهذا يختلف عما ذكر من أسباب إيمان الأقوام السابقين، فكثير منهم كانوا يومنون بعدما تجلت لهم المعجزات الباهرة، دون أن يحكّموا عقولهم في مبادئ دعواتهم، فآمن بنو إسرائيل بعدما رأوا من آيات موسى، وكانوا كلما قل إيمانهم أو ضعف يطلبون معجزة أخرى، وآمن أصحاب عيسى بعد مشاهدتهم لمعجزات نبيهم، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وظلوا يطلبون المعجزات حتى بعد ذلك، كما حدث في قصة المائدة.

لكن الله عز وجل شاء أن تكون معجزة النبي الخالدة هي القرآن الكريم، وترجمانه العملي في الحياة هي سيرة النبي الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[1].

1 -للتوسع في الموضوع أنظر: مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، دار السلام، القاهرة، ط13، 1337هـ2016-م، ص9-13.

## ثالثا-مصادر السيرة النبوية:

عني المسلمون بدراسة السيرة النبوية منذ فجر الإسلام إلى عصرنا الراهن، فصنفوا في ذلك من الكتب والمؤلفات ما يستعصي على العد والحصر، ولم تقتصر الكتابة في السيرة النبوية على المسلمين بل شملت غير المسلمين، ويمكن أن نقسم مصادر السيرة النبوية إلى قسمين رئيسين:

### أ-المصادر الأصلية:

ويقصد بها المصنفات الأولى وما قاربها، التي كان ينقل أصحابها اعتمادا على الأسانيد من المصادر المكتوبة والشفهية، ويدونون ذلك من مصادر متعددة، وتمتد هذه الفترة إلى القرن الخامس الهجري، ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى سبعة أنواع:

-القرآن الكريم-كتب الحديث-كتب الشمائل-كتب الدلائل-كتب المغازي والسير-كتب التاريخ-كتب اللغة والأدب.

#### 1-القرآن الكريم:

وهو أول المصادر التي يجب على الدارس الرجوع إليها في معرفة حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرته، فقد تضمن القرآن الكريم الكثير من الآيات التي عرضت لحياته صلى الله عليه وسلم سواء في الفترة المكية أو المدنية. ومن أمثلة ذلك:

*الحديث عن يتمه وفقره في سورة الضحى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾[1].

*الحديث عن أميته صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُون**﴾[2].

---

1 -سورة الضحى: 6-8.

2 - سورة العنكبوت: 48.

*الحديث عن خروجه صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾[1].

*وصف مواقف المشركين بمكة من الدعوة الإسلامية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُون* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِين * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُون * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِين﴾[2].

*الحديث عن مواقف المنافقين بالمدينة: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ ياأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾[3].

*الحديث عن غزواته صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك:

*غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾[4].

*غزوة أحد: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم*إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾[5].

*غزوة تبوك: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيم * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم﴾[6].

*غزوة الأحزاب: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ

1 -سورة التوبة: 40.

2 -سورة الطور: 28-32.

3 -سورة الأحزاب: 13-14.

4 - سورة آل عمران: 123.

5 -سورة آل عمران: 121-122

6 - سورة التوبة: 118-119.

أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾[1].

*غزوة حنين: قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين * ثُمَّ أَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنزلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِين﴾[2].

*الحديث عن الحياة الأسرية للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِير* إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِير﴾[3].

إن الدارس للسيرة النبوية وهو يربط هذه الآيات بما صح من نصوص السنة والسيرة، في تأكيد مضمونها، وبيان سبب نزولها، وما يتعلق بها، وذكر أشخاصها وأحداثها وأماكنها، يجعل هذه السيرة حية نابضة كأنها تمر أمام القارئ واقعة الساعة...أما مدى اعتماد الباحث على هذا المصدر -أي القرآن الكريم- فيجب أن يقدّم على كل ما عداه، وفي حال تعارضه مع أي مصدر آخر يُرفَض مخالفه، ويؤخذ به لأنه مصدر لا يتطرق إليه أدنى شك، ولا يناقِش في وصوله إلينا بأدق الطرق العلمية إلا معاند أو مكابر ينكر الشمس في رابعة النهار[4].

ويستلزم اعتماد القرآن الكريم في مقدمة مصادر السيرة الرجوعَ إلى كتب التفسير الأولى التي تعتمد على الإسناد، كتفسير الطبري وغيره، لما تضمنته من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، مع إخضاع ذلك للنقد والتقويم، وفق قواعد المحدثين في الجرح والتعديل.

1 - سورة الأحزاب: 9-11.

2 - سورة التوبة: 25-26.

3 - سورة التحريم: 3-4.

4 -فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية، مرجع سابق، ص64-65.

## 2- كتب الحديث:

اعتنت كتب الحديث بجمع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعاله، وأحكامه، وأقضيته، وأفرَدت أبوابا لمغازيه، ولمولده ومبعثه، وقصة نزول الوحي وهيئاته، لكن عناية هذه الكتب -أساسا- تنصرف إلى الأقوال والأفعال التي تعد مصدرا للأحكام التشريعية، أما موضوعات السيرة ووقائعها فكانت تأتي بين ثناياها –عرَضا- للاستدلال بها على حكم من الأحكام الشرعية.

وكتب الحديث كثيرة، تتفاوت في درجاتها طبقا للمنهج الذي سلكه أصحابها، لكنها جميعا تقوم على الرواية والإسناد، وتخضع دراسة الأسانيد لميزان علم الجرح والتعديل، الذي يحدد معايير دقيقة ومنضبطة لقبول الأخبار والروايات، أو ردها، وهذه المعايير تتراوح بين شروط تتعلق برجال السند، وشروط تتعلق بمتن الحديث، فالإسناد الصحيح الذي استوفى الموازين الدقيقة للتصحيح، أهم مرتكز لتصحيح الروايات التاريخية والأخبار، ومن أهم كتب الحديث التي خضعت لهذه المقاييس، وتعد مصدرا معتبرا للسيرة النبوية:

موطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة...

فهذه الكتب ضمت في جوانبها الكثير من أحداث السيرة ووقائعها، وعلى رأسها صحيح البخاري الذي يعد أدقها وأضبطها، وأغناها وأوفرها من حيث مادة السيرة.

وقد افتتح البخاري كتابه بحديث النية، ثم حديث بدء الوحي، وقصة بئر زمزم، وأنساب العرب، وتحدث عن بعض تاريخهم، كما عقد بابا عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم، تناول فيه أحاديث عن صفاته صلى الله عليه وسلم الخلْقية والخلُقية، وعقد بابا عن علامات النبوة، أورد فيه الأحاديث المتعلقة بمعجزاته صلى الله عليه وسلم، كما أورد البخاري أحاديث تتناول زواجه صلى الله عليه وسلم بدءا بخديجة رضي الله عنها، ثم هجرته وغزواته وبعوثه وسراياه وكتبه إلى الرؤساء والملوك في عصره، ثم أورد ما يتعلق بمرضه ولحوقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى.

فصحيح البخاري تناول أمهات أحداث السيرة، وفق منهج غاية في الدقة والضبط والتوثيق العلمي، فكان بذلك متسقا مع اسمه الذي أطلقه عليه صاحبه محمد بن إسماعيل البخاري وهو: «الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه». والأيام هي السيرة.

ولا تخلو باقي كتب السنة من هذا الحضور البارز لوقائع السيرة مبثوثة بين ثناياها، ويلحق بها أيضا كتب اشتغلت على رجال الحديث، وهي كتب التراجم أو تاريخ الرجال، لاسيما الكتب منها التي عنيت بتاريخ الصحابة، نحو كتاب: الطبقات لمحمد بن سعد، ومعرفة الصحابة لابن منده، وغيرهم. ومن المتأخرين: أسد الغابة لابن أثير، والاستيعاب لابن عبد البر، والإصابة لابن حجر...

### 3- كتب الشمائل:

ويقصد بها الكتب التي اهتم أصحابها بذكر الصفات الخلْقية والخلُقية للنبي صلى الله عليه وسلم، وعاداته وفضائله وسلوكه القويم في الليل والنهار. ومن أهم المؤلفات في هذا الصنف:

-كتاب الشمائل للإمام الترمذي (279هـ).

-أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الشيخ الأصبهاني (369هـ).

وهما أغزر الكتب من حيث مادتهما المتصلة بالسيرة النبوية.

وصفة النبي لعلي بن المديني (234هـ)، وصفة أخلاق النبي لداود بن علي الظاهري (270هـ)، وصفة النبي لابن أبي الدنيا (281هـ)، وصفة النبي للقاضي إسماعيل المالكي (282هـ)،وكتاب الشمائل لابن المقري الغرناطي (552هـ)، ومعيشة النبي لأبي داود السجتساني، وأخلاق النبي لابن فارس اللغوي (395هـ)، وغيرها.

وتعتمد هذه الكتب على الإسناد لكنها ليست على وزان واحد في الصحة والدقة، بل تطبق عليها قواعد الجرح والتعديل لتمييز المقبول من المردود، وهي مثل كتب الدلائل وإن كانت جزءا من السيرة النبوية إلا أنها اختصت بجانب منها يتعلق بشمائله صلى الله عليه وسلم.

## 4- كتب الدلائل:

وهي الكتب التي قُصد منها جمع ما يتعلق بمعجزاته صلى الله عليه وسلم، وهذه المعجزات -غير معجزة القرآن- كثيرة جدا، وقد ذكر النووي في مقدمة شرحه لمسلم أنها تزيد عن مائتين وألف (1200)، وذكر البيهقي في المدخل أنها بلغت ألفا.

وهي وإن لم تبلغ بآحادها مبلغ التواتر، إلا أنها بمجموعها تفيد العلم والقطع.

وقد ضمت كتب الحديث الكثير من أحاديث الدلائل، إلى جانب العديد من المصنفات في هذا الباب، نحو:

الحجة في إثبات نبوة النبي لبشير بن المعتمر المعتزلي (210هـ)، والدين والدولة في إثبات نبوة النبي لعلي بن ربّن الطبري (247هـ)، كتبه على طريقة المتكلمين مجردا من الأسانيد، ودلائل النبوة لأبي زرعة الرازي (264هـ)، وأعلام النبوة لأبي داود السجتساني (275هـ)، ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم لابن قتيبة (276هـ)، ومنه اقتبس ابن الجوزي كتابه الوفا بأحوال المصطفى (597هـ)، ودلائل النبوة لابن حبان (354هـ)، ودلائل النبوة لابن عبد البر النمري (463هـ)...

ومن أهم الكتب التي اشتهرت في هذا الشأن: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (430هـ)، ودلائل النبوة للإمام البيهقي (458هـ).

## 5- كتب المغازي والسير:

تعنى هذه الكتب بغزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه، وقد كان هذا الجانب من السيرة محط عناية خاصة من الصحابة والتابعين، فكان الآباء يحكون لأبنائهم وأحبائهم مشاهدهم ومآثرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك روايات عبد الله بن الزبير عن أبيه، وروايات ابن عباس عن أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ابن عباس كما ذكر ابن سعد في الطبقات يخصص يوما للحديث عن المغازي، وكان عكرمة يروي عنه ذلك.

وعن علي بن الحسين قال: كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السورة من القرآن، ويذكر أن أول من صنف في المغازي عروة بن الزبير، وشرحبيل أبو سعد

مولى بني خطمة، ووهب بن منبه، وابن شهاب الزهري، وموسى بن عقبة، وعلى مغازيه عول البخاري في الصحيح، لكن أصل كتابه لم يصل إلينا، سوى ما ذكر من نشر المستشرق الألماني إدوارد سخاو لبعض منه مع ترجمة ألمانية سنة 1904م.

ويعد محمد بن إسحاق بن يسار (150هـ) إمام هذا الفن بغير منازع، فكتابه (المغازي) كان مصدرا خصبا لكل من ألف في السيرة بعده، ومن النادر أن تجد مؤلفا في السيرة لم ينقل من ابن إسحاق، ورغم أن كتاب ابن إسحاق لم يصل إلينا كاملا، بل وجد منه فقط أجزاء طبعت حديثا، إلا أن ابن هشام (218هـ) رواه عن تلميذه زياد بن عبد الله البكائي (183هـ)، فهذبه واختصره، فكان كتاب سيرة ابن هشام منذئذ محطة عناية العلماء حتى يومنا هذا، شرحا واختصارا وتهذيبا وتخريجا، ومن أشهر شراحه السهيلي في الروض الأنف، واختصر الذهبي الروض الأنف في: بلبل الروض.

وهناك أيضا محمد بن عمر الواقدي الأسلمي (207هـ)، فهو من أشهر من ألفوا في المغازي، ورغم اتفاق العلماء على إمامته في هذا الفن، وأنه من أوعية العلم، إلا أنهم لم يقبلوا رواياته في الحلال والحرام، ولم يرو له من الستة غير ابن ماجة، لكن تلميذه محمد بن سعد بن منيع (230هـ)، صاحب (الطبقات)، الذي كان ثقة عند العلماء، قد تولى تنقيح علم الواقدي معتمدا في روايته للسيرة على الأسانيد، رغم أنه انتقد في إكثاره الرواية عن الواقدي والكلبي، وقد صنفه الذهبي ضمن الحفاظ الكبار، وأخرج له أبو داود في السنن، وقد طبع كتابه في عشرة مجلدات، خصص الأول والثاني للسيرة النبوية، والبقية لتراجم الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وهناك مؤلفات عديدة في المغازي لأبي الأسود المدني ومجالد بن سعيد الهمداني، ونجيح بن عبد الرحمن، وعلي بن مجاهد، وعبد الله بن وهب، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وغيرهم.

## 6- كتب التاريخ:

وهي تشمل كتب التاريخ الخاص ببلاد الحرمين وكتب التاريخ العام، أما الأولى فكانت تتناول تاريخ مكة والمدينة لكونهما مهبط الوحي، وتضمان الحرم المكي والحرم النبوي الشريف، فكان أصحابها يتعرضون لنُبَذ من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بين ثنايا هذه

الكتب، ومن أهم الكتب المطبوعة في هذا الشأن: تاريخ مكة لأبي الوليد الأزرقي (250هـ)، وتاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار لابن النجار (643هـ)، وتاريخ المدينة لأبي الحسن محمد بن الحسن المخزومي، وفضائل مكة للحميدي، وغيرها.

أما كتب التاريخ العام، فهي تتميز بالموسوعية والإحاطة، فعادة يبدأ أصحابها بتاريخ البشرية منذ بدء الخليقة، وتنتهي بعصر المؤلف، وقد ألف في هذا الصنف ما لا يحصى من الناس، ومن أشهر المؤلفات في ذلك: تاريخ الأمم والرسل والملوك، لابن جرير الطبري (310هـ)، اعتمد الطبري على من سبقه مثل ابن إسحاق والواقدي وغيرهم، وكان يروي ذلك بأسانيده، فيأتي بروايات متعددة في المسألة الواحدة، ولذلك تنطبق عليه موازين الجرح والتعديل في توثيق الروايات تصحيحا وتضعيفا. وهناك كتب أخرى مثل: كتاب التاريخ لابن أبي الأزهر، والبدء والتاريخ لابن طاهر المقدسي، ومروج الذهب للمسعودي، والتعريف بصحيح التاريخ لابن الجزار القيرواني، وتاريخ العتقي لأبي عبد الرحمن العتقي، والمعارف لابن قتيبة، والكامل لابن الأثير...

ولكتب التاريخ خطورة كبيرة وأثر بليغ في توجيه الفكر الإنساني، ولذلك ينبغي الاحتراز كثيرا من النزعة الذاتية لبعض المؤرخين، المتعلقة بتعصبه السياسي أو المذهبي، ما قد يحمله تارة على طمس معالم حدث، أو إظهاره فوق ما يقتضيه البيان، حسب الأهواء والرغبات، ومن ذلك ما قد نجده من حيف بعض كتّاب التاريخ على الأمويين إرضاء للعباسيين، أو الحيف على العباسيين انتصارا للأمويين، ونحو ذلك، وجنوح بعضهم إلى إقصاء الجوانب الغيبية في السيرة، أو غض الطرف عنها كليا أو جزئيا تغليبا للنزعة المادية.

### 7- كتب اللغة والأدب:

وتشمل كتب الشعر والنثر، فأما الشعر فهو ديوان العرب، وشعارهم وعنوان هويتهم الثقافية، وتفيد دراسة الشعر الجاهلي حتى العصر الأموي في إلقاء الضوء على الكثير من موضوعات السيرة ووقائعها، ومن ذلك هجو الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم وتولي بعض الصحابة وعلى رأسهم حسان بن ثابت الرد عليهم، وقد امتنع الناس عن رواية الشعر الذي هجي به سيد الخلق. وتنبه لأهمية الشعر في السير والمغازي الكثير من العلماء المتقدمين،

أمثال ابن إسحاق وابن هشام، فجاءت كتبهم مليئة بالشواهد الشعرية، ومن ذلك قول خبيب بن عدي:

ولست أبالي حين أقتل مسلما     على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ     يبارك على أوصال شلو ممزع

وكذلك قصيدة كعب بن زهير التي يقول في مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول     متيم إثرها لم يفد مكبول

وكلا القصيدتين رويتا في صحيح البخاري بتمامهما.

أما النثر فكتبه كثيرة، وجلها ظهر لاحقا على فترة النبوة، وأهمها كتب الأدب التي صدرت عن أئمة الأدب، مثل عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ)، لاسيما كتابه البيان والتبيين، الذي ساق فيه أحاديث نبوية تجاوزت المائة ما بين صحيح وموضوع، وكذلك ابن قتيبة في كتبه الأدبية: المعارف والشعر والشعراء، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وغيرها...

وهده الكتب لا تخلو من مادة متعلقة بالسيرة، لكنها تعد مصدرا ضعيفا، لأن غالب أصحابها ليسوا من أهل الاختصاص والتمحيص، ولا بصيرة لأكثرهم بعلم الرواية والتاريخ، فجاءت كتبهم مليئة بالحكايات المرسلة والروايات الواهية، فكل دارس لها لا بد أن يكون محترزا.

## ب-المصادر الفرعية:

هي التي أخذت مادتها من المصادر الأصلية وعولت عليها، واقتصر عمل أصحابها على الجمع والترتيب والتنسيق، والشرح والتعليق، وذلك حسب رغبة المؤلف وطلبته، والجانب الذي يرغب في إبرازه من جوانب السيرة.

وهذه المصادر الفرعية كثيرة جدا، تختلف مناهج أصحابها ومآخذهم، فمنها ما تلقاه الناس بالقبول، ومنها ما كان موضع تحفظ ونقد لبعض جوانبه، وسنعرض لبعضها من قبيل:

الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، والسيرة النبوية للذهبي، والإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا لمغْلطاي بن قليج، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزي، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي...

ونقتصر منها على التعريف بكتاب الشفا لعياض.

-الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت544هـ): حظي كتاب الشفا بعناية كبيرة من المسلمين على مر العصور، فأفرد له العلماء الشروح المطولة حينا والمختصرة أحيانا أخرى، كما اختصره آخرون وخرجوا أحاديثه، وقد ظل لزمن طويل من الكتب التي عليها مدار الدرس والتعليم، لاسيما عند المغاربة.

ولعل ما حببه للناس يرجع لما تميز به أسلوبه من عاطفة متأججة، تفوح بعبق الإيمان والمحبة الصادقة للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد عززه بالحديث عن الآداب والأخلاق الإسلامية، وساق فيه الكثير من الأحكام المستنبطة من القرآن والسنة.

ونظرا لقدر الكتاب الجليل ومكانته صاحبه الرفيعة، صار يقرأ من قبل أهل المغرب في المناسبات، وقيل فيه ما قيل في صحيح البخاري من أنه لا يقرأ في ضيق أو ملمة إلا فرجها الله، وكل شيء بيد الله وحده سبحانه، والكتاب على جلالة قدره ليس كتاب سيرة بالمعنى الأدق، بل جمع فيه صاحبه لمحات من السيرة النبوية وما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم من واجب التعظيم والاحترام على المسلمين، فجاء متسقا مع عنوانه الذي يرمي إلى التعريف بما للنبي الكريم من حقوق على كل مسلم.

## ج- كتب معاصرة في السيرة النبوية:

اهتم المعاصرون بالسيرة النبوية اهتماما كبيرا، يواكب التحديات الفكرية والثقافية التي تواجهها المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فصارت موضوعات السيرة النبوية والخلفاء الراشدين تقدم للأجيال بأساليب عصرية متنوعة، تتراوح بين إنتاج الكتب والمواد السمعية البصرية والإنتاجات الدرامية والسينمائية.

وقد تميزت حركة التأليف في السيرة النبوية لدى المعاصرين –إجمالا- بالاختصار والتنقيح، وحسن الترتيب والتنسيق، كما تميزت باستلهام لغة العصر ومناهجه شكلا ومضمونا، فجاء الكثير منها مفيدا نافعا، بينما تأثر بعضها بأنماط الكتابة الغربية، سواء من حيث اعتماد مناهج في دراسة النصوص، لا تتلاءم مع طبيعة البحث الإسلامي وأصوله العقدية ومقاصده الشرعية، فكان له أثر في إنكار بعضهم للمعجزات صراحة أو ضمنا، أو رفض بعض النصوص التي رأى أصحابها أنها تصادم بعض النظريات والتفسيرات العلمية والفلسفية، التي لا ترقى للحقيقة العلمية أو العقلية، وهذا المسلك سلكه عدد كبير من المستشرقين، وتأثر بهم عدد من الكتاب المسلمين المعاصرين،

يقول الدكتور محمد حسين في كتابه الإسلام والحضارة الغربية: من أكبر ما خدع به الناس –والجامعيون منهم بوجه خاص- ما زعمه لهم بعض المستشرقين من أن الدراسات العربية الإسلامية لا تصح، ولا تكون جديرة بالتقدير، ومستقيمة على موازين العلم حتى يتجرد كاتبها عن عاطفته الدينية والوطنية، فينسى أنه عربي حين يكتب تاريخ العرب، وينسى أنه مسلم حين يكتب تاريخ المسلمين... وليس فيما راج بين الناس من مفتريات مغلظة أقبح ولا أخطر من هذا الزعم الذي يسلخ العرب من عروبتهم والمسلمين من إسلامهم باسم العلم.[1]

ومن أهم مؤلفات المعاصرين في السيرة النبوية:

السيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي، وفقه السيرة لمحمد الغزالي، وفقه السيرة لسعيد رمضان البوطي، ودراسة في السيرة لعماد الدين خليل، والسيرة النبوية للندوي، والرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، وصور من حياة الرسول لأمين دويدار، وفقه السيرة النبوية لمنير الغضبان، والنور الخالد لفتح الله كولن، وحياة محمد لحسنين هيكل، ونور اليقين للخضري...

ونقتصر على التعريف ببعض هذه الكتب، من قبيل:

**-فقه السيرة للغزالي:** تميز كتاب فقه السيرة للغزالي بربط السيرة بالحياة العملية، بأسلوب رائق ولغة أدبية قشيبة، دون أن يهتم كثيرا باستنباط الأحكام الشرعية كما يوحي

1 -محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، جدة، دط، دت، ص136.

عنوانه، فقدم لمحات موجزة من السيرة لينتفع بها الداعية والمسلم المعاصر على السواء، وقد قدم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني للكتاب خدمة جليلة فقام بتخريج أحاديثه، فزاد من قيمته العلمية والعملية، وللكتاب عدة طبعات.

-**فقه السيرة للبوطي:** وقد ساق فيه الدكتور سعيد رمضان البوطي لمحات مختصرة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مع عنايته بالتوثيق نسبيا، فكان يورد الأحداث موجزة ثم يعقب عليها طويلا، فيستنبط الأحكام الشرعية والإضاءات الفكرية، ويورد ما في الأحداث من دروس وعبر وعظات، مع تيسير العبارة وتقريبها لغير المتخصصين في العلوم الشرعية، وذلك ما جعله أيسر تناولا وأقرب إلى قلوب الناشئة، وقد عمل المؤلف بشكل مكثف على إبراز محورية الوحي في السيرة النبوية، وللكتاب عدة طبعات، وهو من أوسع كتب المعاصرين انتشارا وتداولا.

-**الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري:** يتميز الكتاب بسهولة التناول ووضوح العبارة والأسلوب وحسن الترتيب والتقسيم، كما تميز عن الكتب السابقة للمعاصرين بحسن التوثيق، فكان صاحبه ينتقي نصوصه بعناية فائقة من مصادر أصلية، مثل صحيح البخاري وباقي كتب الحديث، وسيرة ابن هشام وزاد المعاد. وقد نال الكتاب الجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي سنة 1398هـ.

-**كتاب النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية، لمحمد فتح الله كولن:** وقد صدر الكتاب بالتركية وترجمه للعربية أورخان محمد علي، وهو واحد من مئات الكتب التي صدرت في السيرة بغير العربية، ولم يسلك فيه صاحبه السرد المعهود للأحداث كما في باقي كتب السيرة، بل جعل له فقرات وعناوين معبرة ومثيرة، ذات دلالة أدبية وفكرية وروحية، حتى يحببه للقارئ، ومن هذه العناوين: الفجر المرتقب-عهد الظلم-علامات النبوة-النبي المرتقب-لماذا لم يؤمنوا؟ -بعد آخر وأفق آخر...

وقد عمل على معالجة الكثير من القضايا والموضوعات التي مزجها بتجربته في الحياة، وقد أسعفه في ذلك ثقافته الموسوعية وتأملاته الفكرية الخصبة، والكتاب مطبوع ومتداول.

وختاما لهذا المبحث يمكن القول بأن التأليف في السيرة واسع متشعب، يستعصي على الحصر، سواء عند القدامى أو المتأخرين أو المعاصرين، على اختلاف مناهجهم وأغراضهم

ولغاتهم، ما يعكس إلى حد كبير أهمية السيرة النبوية في حياة المسلمين، ومدى عنايتهم بها، ويجعلها على الدوام في قلب الدراسات والبحوث الإسلامية، في صلتها بمختلف مناحي العلوم الإسلامية والإنسانية.

# القسم الثاني:

## حالة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة:

## صناعة على العين الربانية

## أولا- حالة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

**الموقع الجغرافي:** تطلق كلمة عرب على الصحارى القفار والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات، وقد أطلِق هذا اللفظ على الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، ثم صار وصفا شائعا لقوم سكنوا هذه الجزيرة.

وجزيرة العرب تتوسط القارات الثلاث التي منها كان يتشكل العالم القديم، يحدها غربا البحر الأحمر (بحر القُلزم) وشبه جزيرة سيناء، وشرقا بحر الخليج (خليج عمان وخليج البصرة) وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية، وشمالا بلاد الشام والعراق، وجنوبا بحر العرب وهو امتداد للمحيط الهندي. وتقدر مساحتها ب 3.237.500 كلم مربع.

**المكونات البشرية (أقوام العرب):** يقسم المؤرخون الأقوام التي سكنت الجزيرة العربية لثلاث سلالات:

-**العرب البائدة:** وهم أقوام العرب القدامى، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق... ممن لا نتوفر على تفاصيل كافية عن حياتهم سوى بعض ما ذكره القرآن عنهم.

-**العرب العاربة:** وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتسمى بالعرب القحطانية، واشتهرت منهما قبيلتان كبيرتان: حمير وكهلان وقد انتهى الصراع بينهما بجلاء كهلان عن اليمن.

-**العرب المستعربة:** وهم العرب المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام، وتسمى بالعرب العدنانية، وأشهر بطونها: مضر وربيعة، وهما ابنا نزار بن معد بن عدنان.

وأشهر قبائل ربيعة: بنو حنيفة وتغلب، وأعظم بطون مضر: قيس عيلان بن مضر، وإلياس بن مضر، ومن قبائل قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو غطفان.

ومن قبائل إلياس بن مضر: تميم بن مرة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبنو كنانة بن خزيمة.

ومن كنانة: قريش، وهم أبناء فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وتضم قريش عدة قبائل، أشهرها: جمح، وسهم، وزهرة، وعدي، ومخزوم، وتيم، وبطون قصي بن كلاب، وهم:

عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، ولعبد مناف أربع فصائل هم: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم.

ومن بني هاشم اصطفى الله تعالى نبيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

وكانت نوفل مع عبد شمس ظهيرا لقريش على بني هاشم في حصار الشعب، حتى قال فيهم أبوطالب في اللامية المنسوبة له:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفل عقوبة شر عاجلا غير آجل

## الحالة الدينية بشبه الجزيرة العربية:

استجاب معظم العرب لدعوة إسماعيل حين دعاهم إلى ملة أبيه إبراهيم، فكانوا على التوحيد إلى أن أدخل زعيم خزاعة عمرو بن لحي الأصنام إلى الكعبة فتبعه الناس، ولأجل ذلك روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبته في النار»[1].

وكان عمرو بن لحي قد ذهب لبلاد الشام فوجد العماليق يعبدون الأصنام، فسألهم عن ذلك، فأخبروه أنهم يستمطرونها فتمطرهم، ويستنصرونها فتنصرهم، فرغب في ذلك ورغّب فيه العرب، وذلك في فترة استيلاء خزاعة على الكعبة، وقد استمرت ولايتهم عليها ثلاثمائة سنة وقيل خمسمائة، ففشا الشرك وعبادة الأوثان في قبائل العرب، ومنهم ولَد إسماعيل، فكان لكل قبيلة صنمهم، واتخذوا لها بيوتا يعظمونها تعظيم الكعبة، فكان لقريش وكنانة العزى بنخلة، وسدنتها من بني شيبان من سليم، واللات بالطائف، وسدنتها وحجابها من بني متعب من ثقيف، ومنات بناحية المشلل من قديد للأوس والخزرج، وقد أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾[2]، وكذلك الشأن في سائر قبائل العرب وبطونهم، فكانوا يحجون إليها ويعكفون عندها ويستغيثون بها، ويسجدون لها ويقدمون لها الذبائح والقرابين، معتقدين أنها تشفع لهم عند الله، وكان ذلك كله ممتزجا ببقايا من تعاليم دين إبراهيم، كتعظيم البيت الحرام والحج والطواف به والوقوف بعرفة...

1 -صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: قصة خزاعة.

2 - سورة النجم: 20-21.

ومن الطرائف التي تبين علاقة العرب بمعبوداتهم ما ذكره ابن قتيبة أن بني حنيفة صنعوا في الجاهلية إلها من تمر أو نحوه، فعبدوه دهرا طويلا، فلما أصابهم مجاعة أكلوه، فقال رجل من تميم يعيرهم:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز.

وقال آخر:

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة[1].

وضمت جزيرة العرب ديانات أخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

فأما اليهودية فكانت نتاجا للهجرات من الشام بعد الغزو البابلي والأشوري، وتدمير هيكلهم من قبل بختنصر (587 ق م)، ثم الغزو الروماني بقيادة بتطس (70م)، فاستوطن بعضهم الحجاز الشمالي (يثرب-خيبر- تيماء)، وذكر بعضهم أكثر من عشرين قبيلة يهودية وجدت بالجزيرة العربية.

ودخلت اليهودية إلى اليمن على يد تبان أسعد أبي كرب، الذي ذهب إلى يثرب مقاتلا ثم اعتنق اليهودية، وعاد معه بحَبرين من بني قريظة، فنشر اليهودية بين قبائل اليمن، ثم ولي بعده ابنه يوسف ذو نواس، فاضطهد مسيحيي اليمن، ممن أبوا الدخول في اليهودية، فخدَّ لهم الأخاديد وأحرقهم بالنار، ولم يستثن امرأة أو رضيعا أو شيخا كبيرا، وقد ذكرت القصة في سورة البروج، قيل إن عدد ضحايا الأخدود بلغ أربعين ألفا وكان ذلك في أكتوبر سنة 503م.

قال تعالى: ﴿**وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوج * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُود * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُود * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُود * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُود * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُود * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد**﴾[2].

1 -ابن قتيبة أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري(ت276هـ)، المعارف، تحقيق: تروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط2، 1388هـ/1966م، ج2 ص226.
2 -سورة البروج: 1-9.

ودخلت النصرانية بلاد العرب عن طريق الغزو الروماني والحبشي، لاسيما ببلاد اليمن خلال القرن الرابع الميلادي، وانتشرت بنجران على يد رجل دين زاهد اسمه فيميون.

وعادت النصرانية بقوة بعد محرقة الأخدود، فدخل أبرهة الحبشي اليمن وانتقم من سلطة ذونواس اليهودية، وعزم على بناء معبد باليمن يضاهي الكعبة، ليصرف العرب عنها إلى النصرانية، فلما أبى العرب ذلك، عزم على هدم الكعبة، فكانت واقعة الفيل الشهيرة التي تحدث عنها القرآن، كما اعتنق النصرانية عرب شمال الجزيرة كالغساسنة والمناذرة وقبائل طيء وقضاعة وتغلب لمجاورتهم الرومان.

وانتشرت النصرانية ببعض بطون قريش، منها: بنو أسد بن عبد العزى، ومن تميم بنو امرؤ القيس[1].

وانتشرت المجوسية بين العرب المجاورين للفرس بالعراق والبحرين وبعض اليمنيين زمن الاحتلال الفارسي، وذكر ابن قتيبة أن المجوسية كانت في تميم، منهم زرارة وحاجب بن زرارة...وممن دان بالمجوسية الأقرع بن حابس وأبو سود جدّ وكيع بن حسان[2].

وأما الصابئية، فهي ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم، كما تدل على ذلك الحفريات، وكان يدين بها الكثير من عرب الشام واليمن وعلى شواطئ الخليج العربي في غابر الأزمان، ثم خفَتَ ذكرها مع صعود الرسالات التوحيدية وانتشارها.

وكانت عبادة الشمس ضمن معتقدات أهل اليمن، وقد ذكر القرآن ذلك في قصة ملكة سبأ: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيم * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُون** ﴾[3].

وظهرت عبادة النجوم والكواكب بحران والبحرين وغيرهما وظهر بمكة رجل يقال له أبو كبشة يعبد نجما اسمه الشعرى، ودعا قريشا لعبادته، فاستجاب له نفر من قريش وخزاعة

1 - ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ج1 ص224.

2 - نفسه، ج2 ص138-139.

3 -سورة النمل: 23-24.

ولخم، ولأجل ذلك كان بعض صناديد قريش ينعتون النبي صلى الله عليه وسلم بعد جهره بدعوته بابن أبي كبشة، ظنا منهم أنه على شاكلته وحاشاه ذلك[1].

ولم تعرف أي من هذه المعتقدات انتشارا واسعا بين قبائل العرب سوى عبادة الأصنام، فقد كانت سمة مشتركة بين جموع قبائل العرب، كما أنه لم تندرس تعاليم الحنيفية السمحاء، بل ظل نفر قليل من العرب يدينون بدين إبراهيم، ويعبدون الإله الواحد الأحد، وينتظرون النبوة، وممن يذكرون في هذا الشأن: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، وخالد بن سنان، وأبو قيس بن أبي سنان، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن لؤي بن غالب، الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم، وذكر غير هؤلاء[2]، وسموا بالحنفاء استناد إلى ما وصف به إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِين**﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين**﴾[4].

## الحالة الثقافية بشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

تميز الوضع الثقافي بشبه الجزيرة العربية بنبوغ العرب في نظم الشعر وتفننهم في البيان، فكان الشعر ديوان العرب ومادتهم الثقافية الخصبة، وكان للشعراء منزلة رفيعة في قبائلهم، يخشى الناس جانبهم، ويتقون شرور ألسنتهم أن تنطلق بالذم والهجاء، فيصبحون محط سخرية العرب. وكانت أسواق العرب ومواسم الحج محافلا لتباري الشعراء وتبادل القصائد، واطلاع العرب على جديد الشعر، ونقله إلى قبائلهم، ليصبح مادة للتداول الثقافي، وللإنشاد والسمر والتلهي، وكانت قريش تكافئ أجود القصائد بتعليقها على الكعبة، ومنها المعلقات السبع.

1 -أنظر: الألوسي، بلوغ الأرب في أحوال العرب، مكتبة ابن رشد، الرياض، ط1، 1422هـ، ج2 ص239.

2 -أنظر: مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ط1، 1412هـ/1992م، ص77.

3 -سورة الأنعام: 79.

4 - سورة آل عمران: 67.

وكان من عادة العرب إقامة الأسواق حسب شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلى بعض، كالآتي:

| السوق | مكانه | موعده بالشهر أو السنة |
|---|---|---|
| دومة الجندل | دومة الجندل | ربيع الأول |
| هجر | البحرين | ربيع الآخر |
| عمان | البحرين | جمادى الأولى |
| حصن المشقَّر | البحرين | جمادى الآخرة |
| صحار | صحار | 10 رجب |
| الشّحر | ساحل بين عمان وعدن | النصف من شعبان |
| عدن أبين | أبين باليمن | رمضان أو شوال |
| حضرموت | حضرموت | النصف من ذي القعدة |
| صنعاء | صنعاء | ذوالقعدة |
| ذي مجاز | مكة بناحية عرفة | موسم الحج |
| مجنة | مكة | موسم الحج |
| عكاظ أعظم أسواق العرب | موضعها بنخلة بين مكة والطائف | ذوالقعدة |
| حباشة | ديار بارق بقنونا بين مكة واليمن | رجب |

ويمكن أن نلاحظ أن أسواق العرب ارتبطت فيها الحالة الاقتصادية بالحالة الثقافية والحالة الدينية، ومعظم هذه الأسواق كان يقصدها أهل الناحية أو القبيلة، إلا عكاظ فقد كان سوقا عاما لجميع قبائل العرب، يقصدونه من كل جهة وناحية أثناء توجههم لمكة لحضور موسم الحج، فيجتمعون بمكان اسمه الابتداء، فتقوم أسواقهم ويتناشدون ويتحاجون، فكان يخطب الشاعر الفحل بقصيدته، والخطيب المصْقَع بكلمته، كما فعل عمرو بن كلثوم بقصيدته الطويلة، وقَس بن ساعدة الإيادي حكيم العرب في خطبته المشهورة، وهو على جمل أورق، وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم.

وضُربت للنابغة الذبياني قبة من أدم ليتحاكم إليه الشعراء في أيهم أشعر، في موقف أشبه بمسابقة شعرية بين فصحاء العرب وبلغائهم، وممن أنشد بين يديه: الأعشى والخنساء وحسان... وقد اتخذت منذ عام الفيل إلى أن أنهاها الخوارج الحرورية، إثر خروجهم مع المختار بن عوف سنة 129 هـ، فخلفها سوق مربد بالبصرة، وكان سوقا للإبل في القديم ثم صار بعد الإسلام محجا للشعراء والأدباء.

وهناك أسواق مختلطة بين العرب والعجم منها: الأبله، ولقه، والأنبار، والحيرة، تقام بأماكن قرب العجم، ذكرها الجاحظ في الحيوان ولا تعلم مواعيدها بالضبط[1].

ولا يخفى أن هذه الأسواق تعدّ من مظاهر التحضر العربي، ومن أشكال الازدهار الثقافي، وقد كان لقريش من خلال عكاظ أثر كبير في تهذيب اللغة وانتقاء الفصيح منها، وتخليص اللسان العربي من الشوائب الدخيلة بسبب مخالطة بعض القبائل العربية للعجم، فتكونت الوحدة اللغوية، التي نزل القرآن معززا لها، بل صار إماما لها ومرجعا دون سائر اللهجات واللغات المتداولة بين القبائل العربية الأخرى.

## الوضع الاجتماعي والاقتصادي:

كانت العرب قبائل وبطونا وأفخاذا تجمع بينهم عصبية الدم والرحم، وفيهم السادة والعبيد، وتتنازع القبائل والبطون الشرف بينها، وتنتشر بينهم الزنا والرذائل حتى إنهم لم يكونوا يتحرجون من ادعاء ذلك، لاسيما في انتساب الأبناء لهم، ولم يكن للنساء كبير شأن يذكر، بل كن يُتوارثن كما يتوارث المال والمتاع، لكن هذه الرذائل المخزية كانت تتعايش معها جملة من الأخلاق الفاضلة، نحو الكرم والنجدة والمروءة وعزة النفس، والعزيمة والحلم والصدق والأمانة، والنفور عن الغدر والخداع.

وكان النشاط الاقتصادي الغالب على العرب هو التجارة، وأكثر ما تنشط في الأشهر الحرم، فتنطلق أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز وغيرها مما سبق ذكره في حديثنا عن أسواق العرب، وكانت لقريش رحلتا الشتاء والصيف التي ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿**لِإِيلَافِ**

1 -مصطفى صادق الرافعي، تاريخ الأدب العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ/ 2000م، ج1، بتصرف، ص77 -78.

**قُرَيْش * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْف * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْت * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْف﴾**[1].

وقد أسهمت الحروب بين الروم والفرس في نمو التجارة العربية وتحولها من الأفق المحلي إلى الأفق العالمي، وقد برزت في ذلك قريش التي عقدت التحالفات مع حكام الروم لتسهيل انتقال قوافلها، كما عرفت التجارة البحرية نشاطا واسعا بين الهند واليمن، وبالإضافة للتجارة كان للعرب نشاط فلاحي في الزراعة ورعي الأنعام، وكانت نساء العرب أكثر شغلهن في الغزل. وأكثر النشاط الصناعي للعرب في مجال الحياكة والدباغة باليمن والحيرة وتخوم الشام.

## ثانيا: نسبه صلى الله عليه وسلم وإرهاصات قدومه:

## نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم:

لنسب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مراحل: مرحلة اتفق على صحتها أهل السير والنسّابون، وتمتد إلى عدنان وتضم واحدا وعشرين أبا، ومرحلة مختلف فيها، وهي ما فوق عدنان إلى إبراهيم، وتضم واحدا وأربعين أبا، ومرحلة لا شك أنها انطوت على أمور غير صحيحة، وهي ما فوق ابراهيم إلى آدم عليه السلام، وتضم ثمانية عشر أبا، وتفصيل ذلك كالآتي:

**المرحلة الأولى:** محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، واسمه شيبة، بن هاشم، واسمه عمرو، بن عبد مناف، واسمه المغيرة، بن قصي، واسمه زيد، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، وهو الملقب بقريش، وإليه تنتسب القبيلة، بن مالك، بن النضر، واسمه قيس، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، واسمه عامر، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان[2].

---

1 -سورة قريش.

2 -هذا القدر من نسبه صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري في الصحيح في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وذكره ابن هشام في سيرته: (1/1-2) وهو موضع اتفاق بين العلماء.

**المرحلة الثانية:** عدنان بن أد، بن هميسع، بن سلامان، بن عوص، بن بوز، بن قموال، بن أبي، بن عوام، بن ناشد، بن حزا، بن بلداس، بن يدلاف، بن طابخ، بن جامح، بن ناحش، بن ماخي، بن عيض، بن عبقر، بن عبيد، بن الدعا، بن حمدان، بن سنبر، بن يثربي، بن يحزن، بن يلحن، بن أرعوي، بن عيض، بن ديشان، بن عيصر، بن أفناد، بن أيهام، بن مقصر، بن ناحث، بن زارح، بن سمي، بن مزي، بن عوضة، بن عرام، بن قيدار، بن إسماعيل، بن إبراهيم عليهما السلام[1].

وفي هذه المرحلة اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وما ذكرناه هو من رواية الكلبي وابن سعد بتحقيق محمد سليمان المنصور.

**المرحلة الثالثة:** ابراهيم بن تارح (آزر)، بن ناحور، بن ساروع (أو ساروغ)، بن فالح، بن عابر، بن شالخ، بن أرفخشد، بن سام، بن نوح عليه السلام، بن لامك، بن متوشلخ، بن أخنوخ (وقيل هو إدريس عليه السلام)، بن يرد، بن مهلائيل، بن قينان، بن آنوشة، بن شيت بن آدم عليه السلام[2].

وينسب النبي صلى الله عليه وسلم لبني هاشم، وهاشم الجد الثاني للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف، حين تصالحوا مع بني عبد الدار واقتسموا المهام بينهم، وكان هاشم موسرا كريم الوفادة، ذا شرف كبير، واسمه عمرو، وغلب عليه اسم هاشم لأنه أول من هشم الخبز وأطعم الثريد للحجاج، وأول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف. كما قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه    قوم بمكة مسنتين عُجاف[3]

---

1 -محمد سليمان المنصور فوري، رحمة للعالمين، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، ج2 ص14-17.

2 -هناك اختلاف كبير في هذه المرحلة ولمطالعته يرجع إلى: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: قسم السيرة النبوية، تحقيق: نشاط غزاوي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار الفكر، دمشق، 14014هـ/1948، ص26-53. وابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تحقيق: سعد كريم الحقي، دار ابن خلدون، الاسكندرية، 1425هـ، ص40-43. والذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ/1987، ص17-22.

3 -المسنتون: الذين أصابتهم السنة وهي الجوع والقحط، والعجاف: الهزال والضعف، ذكر الطبري في تاريخه أن قريشا أصابهم لزبة وقحط، فرحل هاشم إلى فلسطين يحمل ماله كله، فاشترى منها الدقيق وقيل الكعك، فأمر به فخبز له، ونحر جزورا، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك الخبز.

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف.

وقد خرج إلى الشام تاجرا فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو من بني النجار، فحملت بعبد المطلب، ثم خرج إلى الشام فمات بغزة من أرض الشام، فوُلد عبد المطلب سنة 497م، وسمته أمه شيبة لشيبة في رأسه، ولم تشعِر به أحدا من أهل مكة، إلى أن بلغ ست سنين فجاء عمه المطلب يطلبه، فلما دخل به مكة وكان رديفا له على دابة، قال الناس هذا عبد المطلب، ظنا منهم أنه عبد له، فصار منذئذ اسما له.

وكان عبد المطلب كريما شريفا مطاعا في قومه، لقبته قريش بالفياض لسخائه وجوده، فلما مات المطلب انتهت إليه السيادة والشرف، فوثب عمه نوفل على أركاح عبد المطلب – وهي ساحات ومتسع في سفوح الجبال- فغصبه إياها، فأبت قريش نصرته، فكتب إلى أخواله من بني النجار من الخزرج يستنهضهم لنصرته بأبيات يقول فيها:

يا طول ليلي لأحزاني وأشغالي هل من رسول إلى النجار أخوالي
ينبي عديا ودينارا ومازنها ومالكا عصمة الجيران عن حالي
قد كنت فيكم وما أخشى ظلامة ذي ظلم عزيزا منيعا ناعم البال
حتى ارتحلت إلى قومي وأزعجني لذلك مطلب عمي بترحال
وكنت ما كان حيا ناعما جذلا أمشي العرضنة جرّارا لأذيالي
فغاب مطلب في قعر مظلمة ثم انتزى نوفل يعدو على مالي
أأن رأى رجلا غابت عمومته وغاب أخواله عنه بلا والي
أنحى عليه ولم يحفظ له رحما ما أمنع المرء بين العم والخال
فاستنفروا وامنعوا ضيم ابن أختكم لا تخذلوه فما أنتم بخذال
أنتم شهاد لمن لانت عريكته من سلمكم وسمام الأبلخ الغالي[1].

فجاء خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين فارسا وقيل أكثر من ذلك، حتى نزل بأبطح مكة، فخاف نوفل وسلم ابن اخيه حاجته وأحسن منها، وأشهد عليه أهل مكة، فأقام أبو سعد

1 -البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر، جمل من أشراف الانساب، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، 1417هـ/1997م، ص6.

بمكة ثلاثا ثم اعتمر ورجع إلى يثرب، فمن حينها نشأ حلف بين نوفل وبني عبد شمس، في مقابل حلف خزاعة مع بني هاشم.

ومما وقع لعبد المطلب ثلاثة أمور:

***حفر بئر زمزم:** وكان قد اندرس أثره زمنا طويلا مذ قام الجراهمة بردمه عند خروجهم من مكة، بعد غلبة خزاعة على البيت، فقد رأى عبد المطلب في المنام مكان زمزم، فحفره، ثم جاءت قريش فنازعته في ذلك، ثم تراجعوا بعدما احتكموا لعرافة.

***و اقعة الفيل:** كانت في شهر المحرم قبل مولد النبي عليه الصلاة والسلام بخمسين أو خمس وخمسين يوما، وهو يوافق سنة 571م، ولهذه الواقعة علاقة بموقعة الأخدود التاريخية، التي نفذها يوسف ذو نواس اليهودي في نصارى نجران، وكانوا اعتنقوا النصرانية عبر رجل صالح له كرامات اسمه فيميون، وبلغ عدد من قتلوا في الأخدود ما بين 20 ألفا و40 ألفا، مما جعل الرومان يطلبون من ملوك الحبشة دخول اليمن للقضاء على ملك ذو نواس، وقصة أصحاب الأخدود أشار إليها القرآن في سورة البروج، فلما تمكن أبرهة الحبشي من اليمن وقضى على سلطان اليهود بها، أراد بناء بيت للنصارى باليمن يصرف به العرب عن مكة، فلم يستجب له أحد، فقرر هدم الكعبة المشرفة بجيش كبير واصطحب معه الفيلة لترهيب العرب، فكانت واقعة الفيل، وقد ذكر القرآن الواقعة في سورة الفيل مبينا أن الله تعالى أهلكهم بطير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، فزاد ذلك من هيبة الكعبة وتعظيم الناس لها وزادت معها مكانة قريش بين العرب، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾[1].

***النذر وقصة عبد الله الذبيح:** كان عبد المطلب يشعر بعدم النصير في قريش إثر خصومته مع عمه نوفل، ثم مع قريش في حفر بئر زمزم، فنذر لله لئن وهبه عشرة أبناء ليذبحن أحدهم عند الكعبة، فلما حصل ذلك عزم على الوفاء بنذره، فضرب القداح فخرجت على عبد الله وهو من أحسن أولاده وأحبهم إليه وإلى قريش، فذهب به إلى الكعبة ليذبحه فمنعته قريش، لاسيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبوطالب، وأشاروا عليه بأن

1 -سورة الفيل.

يذهب إلى عرافة فيستأمرها، فلما ذهب إلى العرافة أشارت عليه أن يضرب القداح مقرعا بين عبد الله وعشرة من الإبل، فإن خرجت على عبد الله لم يزل يزيد عشرة من الإبل حتى يرضى ربه، فلم تزل تخرج على عبد الله حتى بلغت مائة من الإبل، فنحرها عبد المطلب وتركها لا يرُدّ عنها إنسانا ولا سبعا، وكانت الدية عند العرب عشرة من الإبل، فصارت بعد هذه الواقعة مائة، وأقرها الإسلام[1].

تزوج عبد الله بآمنة بنت وهب بنت سيد بني زهرة، وهي أفضل امرأة في قريش نسبا وشرفا، ولم يمض وقت طويل حتى توفي عبد الله وهو في طريقه إلى يثرب وقيل إلى الشام تاجرا، فدفن بدار النابغة الجعدي، وله خمس وعشرون سنة كما ذكر الواقدي[2]، وذلك قبل أن يولد النبي صلى الله عليه وسلم على قول أكثر المؤرخين، وقيل بعد مولده بشهرين، قال السهيلي: «أكثر العلماء على أنه كان في المهد»[3].

ورثته آمنة بنت وهب بأبيات تقول فيها:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم وجاور لحدا خارجا في الغماغم
دعته المنايا دعوةً فأجابها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنايا وريبها فقد كان معطاء كثير التراحم[4].

## ثالثا–ولادته ورضاعه صلى الله عليه وسلم والحكمة من يتمه:

## مولد النبي صلى الله عليه وسلم:

المشهور أنه ولد عليه الصلاة والسلام بشعب بني هاشم، بمكة صبيحة يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول الموافق ل 570 م كما ذكر ابن إسحاق، لكن عالم الفلك محمد

1 -ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت218هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: محمد همام عبد الرحيم سعيد ومحمد أبو صعيليك، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1409هـ/1988م، ج1 ص151-156.

2 -ابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م ج1 ص99.

3 -السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، 1398هـ/1978م، ج2 ص160.

4 -ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج1 ص158.

باشا توصل إلى أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت في تاسع ربيع الأول عام الفيل، ويوافق 20 أو 21 من شهر أبريل سنة 571م[1]، وكانت قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، وشهدت ولادته نسوة منهن أروى بنت كريز أم عثمان بن عفان، وهي بنت أم حكيم البيضاء عمة النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ومما روي في إرهاصات ولادته من المشاهد العجيبة أن آمنة خرج منها نور أضاء قصور الشام، وسقوط إيوان كسرى، وانطفاء نار المجوس، وسقوط كنائس حول بحيرة ساوة[3].

وفرح به عبد المطلب فرحا شديدا، وطاف به الكعبة، وسماه محمدا ليكون محمودا عند أهل الأرض والسماء، وهو اسم لم تألفه قريش والعرب لأنهم نادرا ما يتسمون به، وقيل إن عبد المطلب ختَنه يوم سابعه جريا على عادة العرب في ذلك، والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ولد مختونا لقوله صلى الله عليه وسلم: «ومن كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوءتي»[4].

وأول من أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابنها مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة، وبعده أبا سلمة المخزومي[5].

1 -محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، تحقيق: محمد العثماني، دار القلم، القاهرة، ط1، 1986/1406، ج1ص62.

2 -انظر: محمد بن يوسف الصالحي الشامي(ت942هـ)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ/1993م، ج1 ص341.

3 -انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م س، ج1 ص97.

4 - رواه أبو نعيم في دلائله (ج1ص154)، الطبراني في الأوسط، والخطيب البغدادي، وابن عساكر، من طرق عن أنس وصححه الضياء في المختارة. وقال الحاكم في المستدرك (ج2ص602): تواترت الأحاديث أنه عليه السلام ولد مختونا، وينظر أيضا: السيرة النبوية لابن حبان (ص58)، والسيرة الشامية (ج1ص420-421). ورجح الذهبي في تاريخ الإسلام (ص27 ) رواية الوليد بن مسلم عن ابن عباس أن عبد المطلب ختنه في يوم سابعه، على رواية ابن سعد في الطبقات (ج1 ص103 ) عن ابن عباس أيضا أنه صلى الله عليه وسلم ولد مختونا مسرورا، والوليد بن مسلم اتهمه ابن عدي بكثرة الغلط والتدليس، وقال فيه أبو حاتم الرازي: لين الحديث.

5 -أنظر: صحيح البخاري في كتاب النكاح، باب: أمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وصحيح مسلم في كتاب: الرضاع، باب: تحريم الربيبة وأخت المرأة، وسنن أبي داود في كتاب: النكاح، باب: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، وسنن النسائي في كتاب: النكاح، باب: تحريم الجمع بين الأختين.

ثم أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وقد حصل لها من بركته الكثير، ففاضت ثديها لبنا وجادت مواشيها بالخير، حتى تحول حالها من فاقة محوجة إلى خير وبركة، فكان زوجها الحارث بن عبد العزى بن رفاعة يقول لها: والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة. فلم تزل حليمة متمسكة به إلى أن وقعت حادثة شق الصدر، وهو في الخامسة من عمره، فخافت عليه حليمة فأعادته إلى حضن أمه.

وإخوته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، من بني الحارث: عبد الله، وأنيسة، وخدامة وهي التي تعرف بالشيماء.[1]

**حادثة شق الصدر:** أخرج مسلم في باب الإسراء، عن أنس أن رسول الله عليه وسلم أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق قلبه، فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

والحكمة من ذلك إعداد النبي صلى الله عليه وسلم إعدادا معنويا وتهييئه للنبوة وتلقي الوحي منذ صغره، وإن جاء ذلك بوسائل حسية في صورة شق الصدر، تعبيرا عن القدرة الإلهية التي لا تتقيد بقوانين المادة والحس، وتطهيرا للنبي صلى الله عليه وسلم من كل حظ للنفس والشيطان، فهو تعهد للنبي الكريم وصناعة له على العين الربانية وحصانة وعصمة له، وتلك سنة الله تعالى في اصطفاء الصفوة من خلقه.

## وفاة أمه وجده عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب:

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى حضن أمه آمنة بنت وهب، ولم يمكث معها طويلا، فلما بلغ ست سنين رأت أمه أن تزور زوجها عبد الله وفاء لذكراه ومعها ابنها اليتيم وحاضنته أم أيمن وجده عبد المطلب، فلما قفلت راجعة أصابها المرض فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة.

1 -ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعدية، الرياض، دت، ج1 ص180.

وبعد وفاة أمه آمنة كفله جده عبد المطلب، فكان يحنو عليه ويؤثره على أبنائه، ويجلسه إلى جانبه في فراشه الذي ينصب له عند الكعبة، إلى أن توفي والنبي صلى الله عليه وسلم له ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام[1].

وكان قد أوصى بكفالته لأبي طالب عمه وشقيق أبيه، فضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بالكثير من التشريف، وظل في حمايته عزيز الجانب حتى وهو فوق الأربعين. ومن تعظيم أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم قوله فيه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومناسبة ذلك ما رواه ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهي في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجذب العيال، فهلم فاستسق، فجرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة... وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغرق واغدودق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي[2].

**شرف النسب:** قد جعله الله سنة ماضية في الأنبياء، فيولدون في خير الأنساب، ولا يأتون من سفاح، وذلك أدعى أن يكون له أثر في نفوس الناس الذين، من طبعهم تعظيم الأنساب، ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان، ما نسبه فيكم؟ قال: هو من أشرفنا نسبا، فبين له سبب السؤال وهو أن الله لا يختار النبي إلا من كرام قومه وأوسطهم نسبا.

لكن النسب وحده لا يغني عن الإنسان شيئا، ولا يقيم له الإسلام وزنا، بل العمدة على الأعمال والخلال، غير أن الجمع بين شرف النسب وشرف العمل يعلي من منزلة الإنسان ويرفع مكانته في الدنيا والآخرة، وقد جاء في الحديث: ((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا))[3]، فالنسب وحده بدون عمل لا ينفع الإنسان في شيء، فالإسلام لا يزن الناس بألوانهم وأجناسهم، أو أنسابهم وأحسابهم أو أموالهم وأولادهم، إنما يزنهم بقلوبهم وأعمالهم وتقواهم، وفي حديث مسلم عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من بطّأ

1 -سيرة ابن هشام، ج1 ص223.

2 -جلال الدين السيوطي، الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ/1985م، دط، ج1 ص145.

3 -صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى.

به عمله لم يسرع به نسبه»[1]، وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين**﴾[2]، قال: يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، وياصفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا[3].

**الحكمة من يتمه صلى الله عليه وسلم:** حكى القرآن عن يتم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عز من قائل ممتنا عليه: ﴿**لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾[4]، فمن إيوائه له وحسن عنايته به أن يسر له في كل طور من حياته من يتكفل به ويقوم بأمره، فأرضعته حليمة وآوته في بادية بني سعد حتى بلغ خمسا، ثم ألحقته بأمه فلم تلبث أن توفيت، ثم كفله جده فلم تمض السنتين حتى مات، ثم لم يزل في كفالة عمه أبي طالب إلى أن شب وكبر.

وفي يتمه صلى الله عليه وسلم دروس تربوية للنبي الكريم، لجعله أكثر إحساسا بالمعاني الإنسانية النبيلة، وامتلاء بالعواطف الرحيمة نحو الفقراء واليتامى والمستضعفين، وهو ما كان له أثره في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم، يظهر ذلك في تواضعه مع الناس، واحترام صغيرهم وتوقير كبيرهم، وفي كسبه للمعدوم وحنوه على الضعيف، ومعاونته على نوائب الحق، وذلك ما جعل الضعفاء أول المستجيبين لدعوته، لما لمسوه فيه من رأفة ورحمة ولين جانب، وقد وصفه الله في القرآن بجملة من هذه الأوصاف منها قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم**﴾[5]، وقوله سبحانه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين**﴾[6].

1 -صحيح مسلم، كتاب: الدعاء والذكر والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

2 -سورة الشعراء: 214.

3 - صحيح البخاري، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب.

4 -سورة الضحى: 6.

5 -سورة التوبة: 128-129.

6 -سورة آل عمران: 159.

وقد أمر القرآن الكريم برعاية حق اليتيم، فقال سبحانه: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَر**﴾[1]، فجاء التشريع الإسلامي بالكثير من الأحكام التي تحفظ حقوق الأيتام وكرامتهم، ومنها حقهم في النسب والإرث والكفالة، وشدد العقوبة على من يأكل أموالهم وينتهك حقوقهم.

## رابعا: حياته صلى الله عليه وسلم بمكة قبل البعثة:

## رحلته صلى الله عليه وسلم إلى الشام مع عمه أبي طالب:

بعد بلوغه صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة رحل مع أبي طالب إلى الشام ببصرى، فكان اللقاء براهب يقال بَحِيرا واسمه (جرجيس)، فأكرم الركب وأحسن الضيافة، فلما عرف النبيَّ صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أبوطالب: وما علمك بذلك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا وخر ساجدا، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالبَ أن يرده ولا يُقدِم به الشام، خوفا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة.

وذكر الترمذي في الجامع أنه بعثه مع أبي بكر وبلال، وهو غلط لأن بلالا لم يولد حينها، وكان عبدا لأمية بن خلف وليس لأبي طالب، وأبو بكر أصغر من النبي صلى الله عليه وسلم، والصواب ما ذكره ابن القيم أن عمه أرسل معه رجلا[2].

**بعده صلى الله عليه وسلم عن حياة اللهو والمجون وعبادة الأصنام**، وغير ذلك مما ينغمس فيه شباب مكة، وسائر الشباب عادة، فكان كلما هم بشيء من ذلك يصرفه الله عنه، كما بغض الله إليه عبادة الأصنام، فقد روى الإمام أحمد بإسناد صحيح: أن جار النبي صلى الله عليه وسلم سمعه يقول لخديجة: «أي خديجة، والله لا أعبد اللات أبدا، والله لا أعبد العزى أبدا، فتقول خديجة: خل اللات، خل العزى[3]...» وروى البيهقي من حديث زيد

1 -سورة الضحى: 9.

2 -ابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27، 1415هـ/1994م، ج1 ص77.

3 -أخرجه الإمام أحمد في مسانيد المقلين، (4/،222)، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (225/8) وقال عنه: رجاله رجال الصحيح.

بن حارثة أنه صلى الله عليه وسلم ما استلم صنما قط، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية، وأبى أن يمس صنم إساف أو نائلة كما كانت عادة أهل الجاهلية[1].

مما يدل على عصمته صلى الله عليه وسلم وصناعته على العين الربانية، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[2]، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[3].

**حرب الفِجار:** نشبت بين كنانة وقيس عيلان في الأشهر الحرم، وسميت حرب الفِجَار لما فيها من انتهاك للمحارم، وكان سبب الحرب مقتل رجل من قريش من قبل قيس عيلان فتداعت الأحلاف[4]، وقاد كنانة فيها حرب بن أمية فحققوا النصر، وكان اشتراك النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحرب رمزيا يقتصر على تجهيز النبل لعمومته، وهو في الخامسة عشر وقيل عشرون، ووجه التأليف بين القولين أن الحرب طالت لسنوات بين الفريقين.

**حلف الفضول:** كان من نتائج حرب الفِجار أن تداعت قبائل من قريش، بنو هاشم وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تيم، فاجتمعوا بدار عبد الله بن جدعان التيمي لشرفه وسنه، وبحضور النبي صلى الله عليه وسلم، وتعاهدوا على نصرة المظلوم بمكة، والسبب المباشر لذلك هو مظلمة رجل من زبيد مع العاص بن وائل السهمي فانتصر له الزبير بن عبد المطلب ونادى باجتماع الحلف، فتعاهدوا وتحالفوا على أن يكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه[5].

وسمي حلف الفضول لدخول بطون قريش في فضول من الأمر وانتزاعهم حق الزبيدي من العاص بن وائل.

وقد شكّل حلف الفضول موقفا إنسانيا مشهودا، يبيّن شرف البيت الهاشمي الذي تزعم الحلف، ويبرز نزوع قريش الفطري نحو نجدة المظلوم ونصرة الحق.

---

1 - البيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، بيروت، ط1، 1408هـ/1988، ج2 ص34.

2 -سورة طه: 39.

3 -سورة طه: 41.

4 -ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، ج3 ص24.

5 - ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص133.

**الكدح في سبيل الرزق:** عمل النبي صلى الله عليه وسلم في صباه برعي الغنم، وهو ما يدل عليه قوله: ((وكنت أرعى الغنم لأهل مكة على قراريط))[1]، كما رحل إلى الشام متاجرا بمال خديجة مضاربا لا أجيرا، وكان يرافقه غلامها ميسرة.

## زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها وما رزق منها من أولاد:

لَمَا رأت خديجة من أمانته وبركته صلى الله عليه وسلم، ولِمَا حكى لها خادمها ميسرة من صدقه وحسن خلاله، فرأت أن تحدّث صديقتها نفيسة بنت منية أن تفاتح النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الزواج بها، فرضي بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وذهب مع أعمامه لخطبتها من عمها، وحضر القران بنو هاشم وسادة قريش، وكان ذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وعمره 25 عاما، وسنها 40 عاما حسب رواية الواقدي[2]، وقيل كان عمرها خمس وثلاثون وقيل خمس وعشرون، ذكر ابن إسحاق أنها كانت في الثامنة والعشرين[3]، ولعل رواية ابن اسحاق هي الراجحة رغم اشتهار رواية الواقدي التي تقول بالأربعين، ذلك أن العادة تقضي ببلوغ المرأة سن اليأس من الإنجاب قبل بلوغ الخمسين، كما ذكر أكرم العمري[4]، والله على كل شيء قدير.

ولم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم غيرَها حتى ماتت رضي الله عنها، وكل أولاده منها سوى إبراهيم، وهم: القاسم، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وعبد الله ويلقب بالطاهر والطيب.

وقد مات الذكور في صغرهم، أما البنات فأدركن الإسلام وهاجرن، لكن المنية أدركتهن جميعا في حياته صلى الله عليه وسلم إلا فاطمة رضي الله عنها توفيت بعده بستة أشهر.

وذكر ابن سعد أن أول من تزوج خديجة هو أبو هالة هند بن النباش بن زرارة، وولدت له رجلا اسمه هند، ثم تزوجها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، فولدت له جارية

1 -أنظر: صحيح البخاري، كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط.

2 -ابن سعد، الطبقات، م س، ج8 ص17.

3 -الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3 ص182.

4 -أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط6، 1415هـ/1994م، ج1 ص113.

يقال لها هند تزوجها صيفي بن أمية بن عابد بن عبد الله[1]، ولمحمد بن صيفي ترجمة في كتابي الاستيعاب والإصابة.

وفي موت أبناءه في حياته صلى الله عليه وسلم فائدتان عظيمتان:

- سنة الابتلاء الماضية في الخلق، وأشد الناس بلاء الأنبياء فمن دونهم.

– عدم توريث النبوة، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين.

## مكانته صلى الله عليه وسلم في مكة واحتكام قريش له في الإشراف على إعادة بناء الكعبة:

عرف النبي صلى الله عليه وسلم بين قريش بكرم الأخلاق ورجاحة العقل، فلقبوه بالصادق الأمين، ولم يؤثر عنه شيء -بشهادة أعدائه- مما يخفر الذمة ويزري بالمروءة، بل كان سباقا إلى الفضائل مسارعا في الخيرات، حريصا عليها، كما شهدت له بذلك خديجة رضي الله عنها بعد نزول الوحي عليه.

ومن أكثر المواقف التي تدل على مكانة النبي صلى الله عليه وسلم داخل مكة، هو احتكام قريش له في بناء الكعبة، وعمره يومئذ خمسة وثلاثون، ذلك أن بناء الكعبة تضرر كثيرا من السيول التي أصابت مكة، فشرعوا في الهدم والبناء وكان أول من تزعم الهدم الوليد بن المغيرة المخزومي، وقسموا البناء بينهم، واستعملوا بنّاء روميا اسمه باقوم، فلما بلغوا الحجر الأسود تنازعوا في من يكون له شرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع خمس ليال، حتى كاد القتال ينشب، فأشار عليهم الوليد بن المغيرة أن يحكموا أول داخل من باب بني شيبة، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه هتفوا هذا الأمين... رضيناه...فوضع الحجر في رداء وطلب من رؤساء القبائل أن يمسكوا بأطراف الرداء، ثم أخذ الحجر ووضعه في مكانه...فبلغ البناء خمسة عشر ذراعا وسقَفوه على ستة أعمدة، فصارت على شكل مربع يرتفع بخمسة عشر مترا[2].

1 -ابن سعد، الطبقات الكبرى، م س، ج8 ص14-15.

2 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج12 ص192-197.

# القسم الثالث:

# الدعوة الإسلامية بمكة:
# من البعثة إلى الدعوة خارج مكة

لما قارب النبي صلى الله عليه وسلم الأربعين ازداد نفوره من معتقدات الجاهلية وتقاليدها، فحبب إليه الخلاء، فكان يحمل معه الزاد: السويق والماء، ويقصد غار حراء في جبل النور على بعد ميلين من مكة، وتبلغ مساحة الغار نحو أربعة أمتار طولا ومتر ونصف عرضا، ويحتاج صعود الغار إلى جهد ومشقة، ويطل الغار على الكعبة، فجمع الله له بذلك الخلوة والتعبد والنظر للبيت العتيق.

وذكر ابن إسحاق أن ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهلية[1]، وذكر ابن حجر أنه مما بقي عندهم من الشرع على سنن الاعتكاف، وأن عبد المطلب كان يخلو في غار حراء[2].

فكان يذهب بأهله إلى الغار، ويقيم به شهر رمضان، ويطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة والتفكر في عظمة الله، دون أن يكون لديه منهاج واضح يهتدي به أو طريق قاصد يسلكه، وذلك هو المقصود بقوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى**﴾[3].

فكانت هذه العزلة تدبيرا ربانيا وإعدادا إلهيا له لحمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين، وقد ظل على ذلك الحال حتى فاجأه الوحي وهو في الغار.

## نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم:

بعد بلوغه سن الأربعين، بدأت تلوح له علامات النبوة، وأول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يراها إلا مثل فلق الصبح، حتى مضى على ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاثة وعشرون عاما، فذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ((رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة))[4].

وكان أول اتصال مباشر له مع الوحي في الواحد والعشرين من رمضان من السنة الثالثة من العزلة في الغار، فنزل عليه جبريل بكلام رب العالمين[5].

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص253.
2 -ابن حجر، فتح الباري، م س، ج12 ص355.
3 -سورة الضحى: 7.
4 -صحيح البخاري، كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة.
5 -صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية، الدار العالمية لكتاب، دط، 1431هـ/2010م، ص75-76.

فقد أخرج البخاري عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق... حتى بلغ: علم الإنسان ما لم يعلم. فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال يا خديجة ما لي وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدُق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخو أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة أي ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم ما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أومخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة، حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم -فيما بلغنا- حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك))(1).

يلخص هذا الخبر المروي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والذي هو بدون شك حصيلة ما أخبرها به النبي صلى الله عليه وسلم بشأن الوحي لأنها لم تعاينه لصغرها، يلخص

1 - صحيح البخاري، كتاب: التعبير، باب: أول ما بدئ به النبي صلى الله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة.

لنا بعض معاناته صلى الله عليه وسلم وما كان يكابده من شدة الوحي وصدمته من ذلك، وهو ما يدحض كل تخرصات المستشرقين وافتراءاتهم تجاه ظاهرة الوحي بأنها من صناعة البشر واختراعه، فلو كان كذلك ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم ما لقيه، من صدمة الوحي وشدته، التي كادت أن تفقده صوابه لولا العناية الإلهية ورعاية جبريل وتثبيته له، فكان يأتيه ويقول له: يا محمد إنك رسول الله حقا.

## فترة الوحي وانقطاعه:

ورد في ذلك روايات عدة، فقيل: ثلاث سنين، وقيل: سنتان، وقيل: غير ذلك، والصواب أنها كانت أياما كما رجح ذلك صاحب الفتح[1].

والحكمة من هذا الانقطاع ليذهب ما كان يجده من الروع والصدمة، وليحصل له التشوق إلى العود. وفيه دليل قوي على أن انقطاع الوحي ثم استمراره تأكيد على أن ظاهرة الوحي ظاهرة ربانية منفصلة ومستقلة عن ذاتية الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾[2].

## عودة الوحي:

روى البخاري عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فبينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني...فنزل ((يا أيها المدثر))[3]. ثم حمي الوحي وتتابع.

## أقسام الوحي:

ذكر ابن القيم سبعة أقسام للوحي وهي:

1-الرؤيا الصالحة: وكانت مبتدأ وحيه.

1-أنظر: ابن حجر، فتح الباري، م س، ج1 ص27، وج8 ص110، ج12 ص360.

2 -سورة الضحى: 1-2

3- صحيح البخاري، كتاب: التعبير، باب: باب ذكر الملائكة.

2-ما كان يلقيه الملك في روعه من غير أن يراه، نحو قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)).[1]

3-أنه كان يتمثل له الملك في صورة رجل فيخاطبه فيعي ما يقوله له، وقد يراه الصحابة أحيانا.

4-أنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه حتى إن جبينه ليتفصد[2] في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به الأرض إن كان راكبها...

5-أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحى إليه، وحدث له ذلك مرتين كما ذكر في سورة النجم.

6-ما أوحى الله إليه ليلة المعراج من فوق السماوات من فرض الصلاة وغيرها...

7-كلام الله إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، قد ثبت ذلك للنبي صلى الله عليه في حديث الإسراء والمعراج[3].

## الدعوة الإسلامية في مكة:

تنقسم المرحلة المكية إلى ثلاث مراحل: الدعوة سرا، والدعوة جهرا، ثم الدعوة خارج مكة.

-**مرحلة الدعوة السرية:** بدأت بنزول سورة المدثر، واستمرت ثلاث سنوات، والحكمة من ذلك:

-التدرج وعدم مفاجأة أهل مكة وتهييجهم على الدعوة الإسلامية منذ الوهلة الأولى، وإلا فإن الأصل في الدعوة الجهر والإعلان.

1- أخرجه السفاريني الحنبلي في كتابه شرح الكشاف عن أبي أمامة الباهلي، وقال: إسناده ضعيف.

2- يتصبب عرقا.

3 -ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج1 ص18.

-البدء بالأكثر قابلية للاستجابة كالأقارب والأصدقاء والخلان، فكان يقصد بدعوته من توسم فيهم الخير ممن هم موضع ثقته، ويعرفون قدره وصدقه وصلاحه، وفي مقدمتهم: زوجه خديجة أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين، ومولاه زيد بن حارثة الكلبي، وابن عمه وكفيله علي بن أبي طالب، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة.

**-نشاط أبي بكر الصديق في نشر الدعوة:** كان الصديق رجلا ذا عقل وتجارة، مألوفا محببا في قومه، فكان يدعو من يثق به، فاستجاب له عدد من الشبان من أبناء أشراف مكة، منهم: عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية هم الرعيل الأول للإسلام. ثم تلاهم بلال بن رباح الحبشي، وأبو عبيدة بن الجراح الفهري، وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وخباب بن الأرث، وعبد الله بن مسعود الهذلي، ومن الموالي: صهيب بن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سمية بنت خياط، وعدّ ابن هشام السابقين الأولين في أربعين نفرا،[1] وأوصلهم اليعمري للخمسين[2].

كان المسلمون يؤدون الصلاة في هذه المرحلة ركعتين عند الغداة ومثلها بالعشي، لقوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾[3].

وبعد الإسراء والمعراج صارت خمسا، وكانوا يؤدونها في الشعاب مستخفين من قومهم، ثم شرعوا بعد ذلك، بدءا من السنة الخامسة، يلتقون سرا بدار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وكانت داره على الصفا بمعزل عن أعين المشركين فصارت أول مركز للدعوة الإسلامية.

وقد تسرب خبر الإسلام إلى سادة قريش، لكن موقفهم ظل يتراوح بين القلق وعدم الاكتراث، ولعلهم عدّوا النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الديانيين المتألهين مثل: ورقة بن

1 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص318-324.

2 -أنظر: ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جوامع السيرة النبوية، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2003م، ص44-51.

3 - سورة غافر: 55.

نوفل، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل... ممن رغبوا عن دين قومهم إلى النصرانية أو الحنيفية دون أن يشكلوا خطرا على معتقدات الوثنية وأهلها.

## مرحلة الجهر بالدعوة:

وإطارها التاريخي يمتد من مستهل السنة الرابعة من البعثة إلى أواخر السنة العاشرة، وشملت خطوتين اثنتين:

**الخطوة الأولى: دعوة الأقربين**، إثر نزول قوله تعالى: ﴿**وَ أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين**﴾[1]، وقد استعرضت سورة الشعراء ما يلائم تلك المرحلة من قصة موسى وفرعون، واستعراض مآل الأقوام الظالمين الذين كذبوا بالرسل.

فقام النبي صلى الله عليه وسلم ودعا بني هاشم وبعض بني المطلب فحضر خمسة وأربعون رجلا فدعاهم إلى الإسلام، فأغلظ له القول أبو لهب، فلم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعاهم ثانية فتعرض له أبو لهب فتصدى له أبو طالب حمية لابن أخيه.

وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**وَ أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين**﴾، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا، فاجتمعوا فعم وخص، فقال: ((يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبُلّها بِبِلاها))[2].

وفي دعوته صلى الله عليه وسلم لقرابته من بني هاشم وبني عبد مناف، أقرب قريش إليه رحما، قبل أن ينتقل لدعوة سائر بطون قريش، في ذلك تأكيد على تجاوز منطق عصبية الدم، ونهوض بأعباء الرسالة وتحمل للمسؤولية تجاه قرابته وأسرته، فهذه الدعوة اختطت منذ الوهلة الأولى طريقها وأوضحت منهاجها، فهي دعوة ربانية لا تحابي قريبا ولا تتحامل على

1 -سورة الشعراء: 214.

2 -صحيح البخاري، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب، صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾.

بعيد، ولا تخضع لتوازنات القوة أوتستكين لإكراهات الواقع، بل تحدّد وجهتَها مبادئ الوحي، وتوجه مساراتها وخططها في الواقع حكمة الإنسان السوي في التدبير وسياسة الأمور، لكن أكبر درس نستفيده من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقرابته وعشيرته، من بطون قريش، وإعلانه المفاصلة العقدية، أن هذا الدين لم يكن في بواعثه استجابة للدواعي الاجتماعية الطبقية، أو انتصارا للمشاريع القومية العصبية، التي غايتها أن تبوئ القبيلة أو العرق مكانا مرموقا، فنحن لسنا إزاء مشروع قومي يسعى لتجسيد الطموحات القومية للعرب، أو مشروع ثوري ينتصر لطبقة ضد أخرى، كما تحرص عدد من القراءات المعاصرة للسيرة النبوية على إبراز ذلك، بل إننا إزاء نموذج فريد لدعوة ربانية ببعد إنساني عالمي مشرق، تجمع بين رسالة السماء وحكمة الأرض، وبين إصلاح القلوب وإصلاح المجتمع.

**الخطوة الثانية: دعوة قريش**، ذكر البخاري[1] أنه صلى الله عليه وسلم صعد لجبل الصفا ونادى على بطون قريش: ((يا بني فهر، يا بني عدي...)) إلى أن اجتمعوا، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا، فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا. فنزل قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَب * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَب * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَب *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَد**﴾[2]، فكانت هذه بداية الصدع بالحق امتثالا لقوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين**﴾[3]، فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم يبين حقيقة الأصنام، ويسفه عبادتها، ويحرض على مكارم الأخلاق، فغضبت قريش واستنكرت ذلك، فقصدوا أبا طالب فردهم ردا جميلا.

ولما قرب موسم الحج خافوا أن يفسد عليهم الإسلام حجهم، فاجتمعوا ليوحدوا الرأي والموقف بشأن النبي صلى الله عليه وسلم، وما سيخبرون العرب به عنه، فتداولوا في وصفه بالكاهن أو المجنون أو الشاعر، فما طاب لهم منها وصف، فاقترح عليهم الوليد بن المغيرة بعد طول تفكير أن يعدّوه ساحرا، لأنه جاء بما يفرق بين المرء وأخيه. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر * ثُمَّ نَظَر * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَر * ثُمَّ أَدْبَرَ**

1 -صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين...

2 -سورة المسد.

3 -سورة الحجر: 94.

**وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَر* إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَر* سَأُصْلِيهِ سَقَر﴾**[1]، فكان من نتائج ذلك أن شاع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في قبائل العرب المجاورة، وفشا خبره، مما مهد لمحاولات الدعوة خارج مكة.

## - الأساليب التي نهجتها قريش في مواجهة الدعوة الإسلامية:

نهجت قريش أساليب شتى في مواجهة الدعوة الإسلامية، والصد عنها، والحد من انتشارها، ومن هذه الأساليب:

**-السخرية والاستهزاء والتحقير، والاتهام بالسحر والجنون، والشعر والكذب**، وقد قص القرآن ذلك في مواضع عدة، منها:

قوله تعالى: **﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُون* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُون* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِين﴾**[2].

وقوله عز من قائل: **﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾**[3].

**-تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات حوله:** وقد حكى القرآن ذلك وفنده، ومن ذلك استنكارهم للطبيعة البشرية للنبي صلى الله عليه وسلم: **﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾**[4]، وتشكيكهم في مصدر القرآن وفي الوحي: **﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**[5]، **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِين﴾**[6]، كما عمدوا إلى التشويش على القرآن بمعارضته بأساطير الفرس، فمضى النضر بن الحارث إلى الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار،

1 - سورة المدثر: 18-26.

2 -سورة الطور:29-31.

3 -سورة الأنعام: 10.

4 -سورة الفرقان: 7.

5 -سورة الفرقان: 5.

6 -سورة النحل: 103.

فكان يزاحم النبي صلى الله عليه وسلم بحديثه بمكة، فكلما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ودعا الناس إلى دعوته، قام النضر ليحدث بذلك، وكان يقول: والله ما محمد بأحسن حديث مني[1].

**-الإغراء بالقينات والمغنيات:** ومن ذلك ما روي عن ابن عباس أن النضر بن الحارث كان قد اشترى قينات، فكان لا يسمع برجل أسلم إلا سلط عليه واحدة منهن، تطعمه وتسقيه وتغني له، حتى لا يبقى له ميل للإسلام[2]، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِين**﴾[3].

**-المفاوضات والمساومات:** لم تفلح كل الأساليب التي نهجتها قريش في وقف زحف الدعوة الإسلامية، والحد من توهجها بمكة، ففكرت قريش في مساومة النبي صلى الله عليه، والبحث عن التسويات الودية والحلول الوسطى، فعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم عاما ثم يعبدوا إلهه عاما، وفي رواية ابن إسحاق أن نفرا من قريش اعترض النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف عند الكعبة، فقالوا يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد ولتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله فيهم: ﴿**قُلْ ياأَيُّهَا الْكَافِرُون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّم * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين**﴾[4].[5]

وقد تعددت الروايات في ذلك، مما يدل على تعدد المحاولات وتكرارها من قريش، كما ساوموا أبا طالب أيضا بأن يعطوه عمارة بن الوليد أنهد فتيان قريش وأجملهم ويعطيهم النبي صلى الله عليه وسلم لقتله، فغضب أبو طالب من قريش ورد عليهم ردا حاسما[6].

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص299-300.

2 -القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عماد البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دت، ج14 ص44.

3 -سورة لقمان: 6.

4 -سورة الكافرون.

5 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص362.

6 -نفسه، ج1 ض266-267.

وفي مرحلة لاحقة بعد إسلام حمزة وعمر ستعيد قريش المحاولة بإرسال عتبة بن ربيعة لضرب جديد من المساومة فعرض عليه المال والسيادة والشرف والملك، فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم صدرا من سورة فصلت حتى تأثر لها عتبة وناشده الرحم أن يكف، وعاد إلى قومه متأثرا، وطلب منهم أن يخلوا بينه وبين العرب، فإن تصبه فقد كفوا منه وإن يظهر عليهم فعزه عزهم وملكه ملكهم. فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه[1].

ومن الواضح أن انتهاج قريش لسياسة المساومات كان في السنة السادسة، وإن لم تفصح عنها المصادر التاريخية، والعروض المقدمة كانت في فترات زمنية متقاربة كما تثبت ذلك القرآئن.

وقد كانت آخر مفاوضات لقريش مع أبي طالب ومع النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة بعد أشهر من انتهاء الحصار، حيث استشعرت قريش دنو أجل أبي طالب بسبب اشتداد المرض به وهو في الثمانين، فأرادت أن تأخذ لها من النبي صلى الله عليه وسلم في حياة أبي طالب، فوفد عليه خمسة وعشرون من أشرافهم فيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأمية بن خلف وأبوسفيان وغيرهم، فعرضوا عليه أن يخلوا سبيله ما خلى سبيلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه: أفلا تدعوهم إلى ما هو خير؟ كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم؟ فقالوا ماهي بل نعطيك عشرا منها، فقال صلى الله عليه وسلم: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد أتريد أتجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك لعجب، ثم تفرقوا وانصرفوا يائسين[2]، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّاب * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب**﴾[3].

**-الاضطهاد والإيذاء:** لم تفلح محاولات قريش لصد الدعوة الإسلامية، ولم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم بعروض قريش ومساوماتها، فلجأت إلى التعذيب والاضطهاد للمسلمين الضعفاء لاسيما من العبيد والموالي.

1 -نفسه، ج1 ص293-294.

2 - ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص417-419.

3 -سورة ص: 4-5.

وقد نال النبي صلى الله عليه وسلم حظه من الأذى من عمه أبي لهب، الذي كان يرميه بالحجارة حتى يدمي عقبيه، وكانت زوجه أم جميل أروى بنت حرب تضع الشوك في طريقه وأمام باب مسكنه وكان مجاورا لها، فنزلت سورة المسد في شأنهما[1]، قال تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَب * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَب * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَب *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَد**﴾[2].

وكان أبو لهب قد استبشر بوفاة عبد الله الابن الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم، وذهب إلى قريش مهرولا يبشرهم أن النبي قد صار أبتر، فكان من أسباب نزول سورة الكوثر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر**﴾[3]، وقيل إنها نزلت في العاص بن وائل، وقيل إنها نزلت في قريش لما مات القاسم ابن النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: بتر محمد، فليس من يقوم بأمره بعده، وكانت عادة أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا: بتر فلان[4].

وأشد الناس إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم من جيرانه عموما: أبولهب، والحكم بن أبي العاص، وابن الأصداء الهذلي، وعدي بن حمراء الثقفي، وعقبة ابن أبي معيط وهو أشرهم، وقد رمى عقبة على النبي صلى الله عليه وسلم سلا جزور بينما كان ساجدا عند الكعبة، فأزالته عنه فاطمة وهي تبكي. ثم دعا على قريش فقال: «اللهم عليك بقريش» فشق ذلك عليهم لمعرفتهم أن الدعاء عند البيت مستجاب، خاصة منه صلى الله عليه وسلم، فاستدرك وقال: «اللهم عليك بأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن ربيعة، وأمية بن خلف، فكانوا صرعى في قليب بدر[5].

وكان لأبي جهل محاولات في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والتحريض عليه، ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التر اب، فأتى رسولَ

1 - ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص335-336.

2 -سورة المسد.

3 -سورة الكوثر.

4 -القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ج20 ص174-175.

5 -أنظر: حديث مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين.

الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو دنى مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا[1].

## بعض من شملهم التعذيب من الصحابة:

-أبو بكر الصديق: دنا منه عتبة بن ربيعة ونزا على بطنه وجعل يضربه ضربا شديدا بنعلين مخصوفتين ناحية وجهه، حتى دمي فما عرفوا وجهه من أنفه، وحمله بنو تيم في ثوب إلى بيته وهم لا يشكون في موته، فلما تكلم آخر النهار، قال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحلف ألا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يأتي رسول الله، فأتاه وهو يتوكأ على أمه أم الخير وأم جميل بنت الخطاب، فلما رآه قال: كل مصيبة بعدك تهون يا رسول الله[2].

-عثمان بن عفان: عذب من قبل عمه الذي كان يلفه في حصير من أوراق النخيل.

-مصعب بن عمير: وكان شابا جميلا يافعا من أنعم الناس عيشا، فلما أسلم منعت عنه أمه الطعام والمال وطردته من البيت.

-بلال بن رباح: وكان عبدا لأمية بن خلف الجمحي، فلما أسلم وضع أمية في عنقه الحبل وأسلمه للصبيان يضربونه ويطوفون به في شعاب مكة حتى ظهر أثر الحبل في عنقه، ثم كان يضربه بالعصا ويطرحه في حر شمس الظهيرة ببطحاء مكة، ويتركه جائعا ظمئا، ثم يأمر بصخرة عظيمة فتوضع على صدره. وذكر ابن هشام أنه كان يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال: أحد أحد. حتى أعتقه أبو بكر الصديق بسبع أواق من الفضة.

- آل ياسر: وكانوا موالي لبني مخزوم، فلما علم أبو جهل بإسلامهم أخرجوهم إلى الأبطح ليعذبوهم في حر الرمضاء، فمر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة. فمات ياسر- والد عمار- تحت التعذيب وطعن أبو جهل سمية –أم عمار- في قلبها فماتت فكانت أول شهيدة في الإسلام. أما عمار فتفننوا في تعذيبه تارة بتركه في الحر

---

1 -صحيح مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: قوله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾.

2 -ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمرو الدمشقي، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر، 1932، ج3 ص30.

وتارة بوضع الصخر على صدره وتارة أخرى بالتغريق في الماء، وأبوا أن يدعوه حتى يسب النبي صلى الله عليه وسلم ويقول خيرا في آلهتهم، فصدر منه بعض من ذلك وهو ما بين التعذيب والإغماء فتركوه مبتهجين بما صدر منه، فجاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم باكيا معتذرا متأسفا، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾[1].

-خباب بن الأرت: وكان مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فلم أسلم تفنن المشركون في تعذيبه، فكانوا يجذبونه بشعر رأسه ويلوون عنقه بعنف، ويضجعونه على الفحام الملتهبة واضعين عليه الصخر والحجارة الضخمة حتى لا يستطيع أن يقوم من موضعه.

-أبو فكيهة واسمه أفلح: وكان مولى لبني عبد الدار، فكانوا يشدون الحبل برجليه، ثم يجرونه على الأرض جرا.

**-الإيماء اللائي تعرضن للتعذيب:** وممن حفظت أسماؤهن في كتب السيرة: زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس، وقد أذاقهن المشركون ألوانا من التعذيب مثلما ذكرنا وأكثر، ومنهن أيضا جارية لبني المؤمل –وهو حي من بني عدي- فكانوا يعذبونها ويضربونها ولا يتركونها إلا ملالة[2]، مما يدل على حجم صمودهن وتمسكهن بالإسلام والإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهن، فتحررت إرادتهن وهمتهن قبل أن تحرر رقابهن من الرق، فكان من فضل الله عليهن أن كافأهن بتحرير رقابهن حتى ينلن الحرية الكاملة، وذلك بعد أن أعتقهن الصدّيق وأعتق معهن بلالا وعامر بن فهيرة.

ولا شك أن قائمة المؤمنين والمؤمنات المعذبين في مكة لأجل الإسلام طويلة، وكذلك صنوف التعذيب وألوانه متعددة ومختلفة، وهي تختلف من حيث الشدة والبأس بين فئة العبيد والإيماء والموالي، وبين فئة الأحرار.

## -الحكمة من الابتلاء والتعذيب:

لقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يكون في مقدمة أنصار الدعوة المحمدية، كسائر دعوات الأنبياء، هم الفقراء والعبيد والمستضعفون، فبهم تشرف الدعوة ويعظم أمرها،

1 -سورة النحل: 106.

2 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص117-120.

وبها يشرفون، هم أيضا، ويرتفع شأنهم، لتتحقق سنة الله وإرادته المتجلية في قوله: ﴿**ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم**﴾[1]، وقوله: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِين**﴾[2]، ناهيك عن سنة الابتلاء والامتحان للمؤمنين ليميز الله الخبيث من الطيب والمؤمن من المدعي، قال عز شأنه: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين**﴾[3].

وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى ما تتطلبه سنة الابتلاء من الصبر والاحتساب، وأن ذلك امتحان يمر به أتباع الرسل في كل زمان ومكان، فقد روى البخاري عن خباب بن الأرت (وهو ممن شملهم التعذيب) قال: شكَوْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو الله لنا، قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيُوضَع على رأسه، فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينِه، ويُمشَط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمه من عَظْم أو عصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليُتمنَّ هذا الأمرَ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمِه، ولكنكم تستعجلون»[4].

وفي جواب النبي صلى الله عليه وسلم لخباب تربية للمسلمين على الصبر باستدعاء نماذج أشد وأنكى من التعذيب والابتلاء، تعرض لها المؤمنون من الأمم الأخرى، حتى يستصغروا ما يواجهونه من أذى الكفار، وتطمئن قلوبهم بالبشرى وعاقبة الأمر، وهي الأمن بعد الخوف، والقوة والنصر بعد الضعف، وفي امتناعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء على الكفار، رحمة بقومه وطمع في هدايتهم إلى الإسلام.

## الهجرة الأولى إلى الحبشة:

تزامنت مع نزول سورة الكهف بما تضمنته من جميل المواساة للمؤمنين المضطهدين المعذبين في شعاب مكة، لاسيما قصة الفتية الذين اعتزلوا قومهم فرارا بدينهم من فتنة

1 -سورة محمد: 7.

2 -سورة القصص: 5.

3 -سورة العنكبوت: 1-3.

4 -صحيح البخاري، كتاب: كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام.

السلطان وفتنة الشيطان، قال سبحانه عز وجل: ﴿**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا**﴾[1].

فخرج أول فوج يؤم الحبشة وعلى رأسهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا اثني عشر رجلا، وذلك في غضون شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، وكان قد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على ملكها أصحمة النجاشي ووصفه بالملك العادل.

ثم تبعتها الهجرة الثانية، وكانت أوسع وأكبر، إذ ضمت ثلاثا وثمانين رجلا وثلاث عشرة امرأة. وأرسلت قريش في طلبهم عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة لاستعادتهم من ملك الحبشة، فجرت مناظرة شائقة بين عمرو بن العاص وجعفر بن أبي طالب المتحدث باسم المهاجرين، وقد أعلى الله الحق على الباطل في ذلك الموقف المشهود، فرد النجاشي على مبعوثي قريش هداياهم وأبى تسليم المؤمنين المهاجرين لهم[2].

## اشتداد ضغط قريش على أبي طالب:

تولى أبو طالب تربيته النبي صلى الله عليه وسلم ورعايته بعد موت عبد المطلب، فكان يحنو عليه ويشفق عليه شفقة الأب على ابنه، وبعد البعثة ظل أبو طالب خير نصير له، فكان ينصره حمية دون أن يدخل في الإسلام، وكانت قريش تهاب أبا طالب وتحفظ له مكانته بين أسيادها وشرفائها، فلا تقدر على إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك كانوا يأتونه متلطفين فيردهم ردا جميلا.

وذكر ابن هشام أنه لما اشتد عليهم أمر النبي ودعوته جاؤوا إليه مهددين، فطلب أبوطالب من النبي صلى الله عليه وسلم ألا يحمّله من الأمر ما لا يطيق، فظن النبي صلى الله عليه وسلم أن عمه قد جبن عن نصرته، وهو لا محالة خاذله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر،

1 -سورة الكهف: 16.

2 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص224-228.

حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته)) ثم استعبر وبكى، وقام. فلما ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا[1].

## إسلام حمزة وعمر:

كان حمزة وعمر من أشد فتيان مكة وشبابها شكيمة وبأسا، وأكثرهم برا ووفاء وصدقا، ولإسلام الرجلين دوافع مختلفة، فأما حمزة فأسلم حمية، ذلك أنه بلغه وهو عائد من الصيد، من امرأة من موالي عبد الله بن جدعان، أن أبا جهل مر بالنبي صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه ونال منه، وهو ساكت لا يجيبه بشيء، ثم ضربه بحجر فشج رأسه الشريف حتى نزف الدم منه، فغضب حمزة لصنيع الطاغية أبي جهل، فقصده وهو في نادي قريش عند المسجد، فقال له: أتشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس حتى شجه شجة بليغة، فثار رجال من بني مخزوم، وثار لحمزة رجال من بني هاشم، فقال أبو جهل: ذروا أبا عمارة، فوالله لقد سببت ابن أخيه سبا قبيحا[2].

أما عمر فكان مبعث إسلامه عاطفة فجائية، جاشت بها نفسه لمشهد أخته فاطمة، والدم يسيل على خدها، بعد أن ضربها إثر اكتشافه إسلامها مع زوجها، وكان يهم بالذهاب لقتل النبي صلى الله عليه وسلم وتخليص قريش من أمره، فلما أُخبر بإسلام أخته وزوجها ذهب لمعاقبتهما، فلما انهال عليهما ضربا راعه مشهد الدم على خد أخته فاطمة، وكان رجلا محبا لقرابته رحيما بهم، فأشفق لحالها وطلب مناولته الصحيفة التي كانوا يقرأونها، فكان ذلك بداية دخوله في الإسلام.[3]

ويؤكد الجمع بين الروايات في إسلام عمر أن الرجل كانت بداخله مشاعر متصارعة بين الدخول في الإسلام والوفاء لعصبية قريش وتقاليدها، وقد ارتضوه سفيرا لهم، فلم تكن قصته مع أخته سوى اللحظة الحاسمة التي انتصرت فيها مشاعر الإيمان والخير على نوازع الجاهلية والشر في نفس عمر، خاصة وأنه مع ما عرف به في الجاهلية من الاسترسال في السكر والشهوات، كان رجلا عاقلا أريبا، مبغضا للظلم، معظما لمكارم الأخلاق، فكان من

1 -نفسه، ج1 ص265-266.
2 -نفسه، ج1 ص291-292.
3 -نفسه، 243/1-246.

توازن شخصيته أنه ما إن يثور حتى يخور كما يقول محمد الغزالي، وكل ذلك مع ما سبق له من التوفيق الإلهي والهداية الربانية، فقد أصابته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يعز الله الإسلام وينصره بأحب العمرين إليه، يقصد: عمرو بن هشام، وعمر بن الخطاب[1].

وقد اعتز الإسلام بإسلام الرجلين: حمزة وعمر، وكان بين إسلامهما ثلاثة أيام فقط، وذلك في ذي الحجة من السنة السادسة من البعثة. ومن مظاهر اعتزاز الإسلام أنه بعد إسلام حمزة وعمر خرج المسلمون في صفّين، يؤم أحدهما عمر والآخر يؤمه حمزة، في مشهد مهيب أغاظ قريشا وأدخل الكآبة في نفوسهم، وكان ذلك أشبه بمظاهر الاحتجاج السلمي بمنطق عصرنا، وانطلقوا حتى دخلوا المسجد وما كان يقدر أحد منهم على الصلاة عند الكعبة قبل ذلك، فمنذ ذلك اليوم لقب عمر بالفاروق، قال عبد الله بن مسعود: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر»[2].

## الحصار والمقاطعة الشاملة:

أثار إسلام حمزة وعمر حفيظة قريش، ونقل الصراع بين قريش والإسلام إلى مرحلة جديدة وحاسمة، فنهجوا سياسة المساومات والمفاوضات فعرضوا على أبي طالب مبادلة ابن أخيه بعمارة بن الوليد فلما رد عليهم أبو طالب بغضب واستهجان، قصدوا النبي صلى الله عليه وسلم وخيروه بين الملك والمال وغيره من متاع الدنيا فأجابهم ببيان الوحي وفصاحة القرآن، فبدأوا يضمرون في نفوسهم الشر ويفكرون في المواجهة مع بني هاشم ومن يؤيدهم من بني زهرة أخوال النبي صلى الله وسلم وبعض بني عبد مناف وعلى رأسهم بنو المطلب.

وقد رافق ذلك أحداث كثيفة تؤكد عزم قريش على التخلص من النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك: عرضهم المقدم لأبي طالب، وضرب أبي جهل النبي صلى الله عليه وسلم بحجر على رأسه، وخنق عقبة بن أبي معيط للنبي صلى الله عليه وسلم بردائه حتى كاد يقتله لولا العصمة الربانية، فرأى أبوطالب أن يجمع بني هاشم وبني المطلب وأن يدعوهم لمنعة ابن أخيه وحمايته، فأجابوه جميعا حمية إلا ما كان من أبي لهب، فقد آثر أن يكون في صف قريش.

1 -جامع الترمذي، أبواب المناقب، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب.
2 -صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: إسلام عمر بن الخطاب.

وكان لهذا الموقف أثر في استنكاف قريش وتخليهم ولو مؤقتا عن فكرة القتل والتخلص من النبي صلى الله عليه وسلم، لكنهم دبروا أمرا آخر أشد ظلما وعدوانا، وهو محاصرة بني هاشم ومقاطعتهم مقاطعة شاملة، وهو نوع من العقاب الجماعي الذي يستهدف الحاضنة الاجتماعية للإسلام، وإن كان احتضان بني هاشم للنبي صلى الله عليه وسلم لا يتأسس على عقيدة أو إيمان، بل يقوم على حمية الدم والجوار.

وكان قادة قريش قد اجتمعوا بوادي المحصب فأعلنوا تحالفهم على بني هاشم والمطلب، لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم، حتى يسلموهم محمدا صلى الله عليم وسلم ليقتلوه، وكتبوا في ذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، وذكر ابن القيم في زاد المعاد أن الذي كتبها هو بغيض بن عامر بن هاشم فشلت يده[1]. فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبي طالب إلا ما كان من أبي لهب، وحبسوا في الشعب وحبست عنهم قريش الطعام والمؤنة، إلا ما كان يصلهم خفية من بعض المسلمين أو بعض حلفاء بني هاشم، فجهد الناس وحصلت لهم مجاعة شديدة أكلوا منها أوراق الأشجار والجلود.

وقد استمر حصارهم ثلاثة أعوام من محرم السنة السابعة إلى محرم السنة العاشرة[2].

## نقض الصحيفة وإفشال الحصار والمقاطعة الشاملة:

لم يكن داخل قريش إجماع على الصحيفة، لكن صناديد قريش فرضوا الأمر فرضا، فحصل تململ داخل الرأي العام القرشي، وقد شعر كثير منهم بالخزي تجاه ما يحصل لأرحامهم في شعب أبي طالب، فظهرت حركة معارضة للصحيفة تزعمها هشام بن عمرو بن عامر بن لؤي، وكان ممن يأتي بالطعام إلى الشعب مستخفيا، فأراد أن يشكل عصبة من رافضي الحصار، فقصد عددا ممن تشتد صلتهم ببني هاشم، منهم زهير بن أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فأقنعه من جانب معاناة أخواله بالشعب، ثم المطعم بن عدي، وكان يرق لأرحامه من بني عبد مناف، ثم قصد أبا البحتري بن هشام، وزمعة بن

1 -ابن القيم، زاد المعاد، مرجع سابق، ج2 ص46.

2 -المباركفوري، الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص113.

الأسود بن المطلب بن أسد، فاجتمعوا عند الحجون[1]، وتعاقدوا على خطة نقض الصحيفة، وكانت تقضي بمباغتة قريش في ناديهم عند الكعبة، وتشكيل رأي عام قوي ضد الصحيفة، فلا يقدر صناديد قريش على الوقوف في وجههم، وذلك ما صنعوا، فكان أول من صرخ في جموع قريش هو زهير بن أمية فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فأراد أبو جهل أن يعترضه، فقام إليه زمعة بن الأسود، ثم قام أبو البحتري يعضدهما، ثم المطعم بن عدي، ثم هشام بن عمرو بن عامر بن لؤي، فتبعهم الناس، ولم يجد أبو جهل ومن معه من الصناديد بدا من الانصياع، فشقت الصحيفة، وحضر شقَّها أبو طالب، الذي أبلغهم بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من معجزة أكل الأرضة لما في الصحيفة، إلا ما كان من مواضع اسم الله، فنقضت الصحيفة وخرج النبي صلى الله عليم وسلم ومن معه من الشعب، وكان ذلك نصرا للمؤمنين والمستضعفين، وخزيا للمشركين الظالمين[2].

## عام الحزن:

كان أبو طالب وأم المؤمنين خديجة وزيري صدق لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فأبو طالب عمه الشقيق، وفّى بوصية أبيه عبد المطلب في الحرص على رعاية ابن أخيه مذ كان صبيا في الثامنة من عمره، وظل يحوطه ويمنعه من قريش، وهو القائل في حقه:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

أما خديجة فقد كانت تواسيه بنفسها ومالها، وتشدّ أزره في المواقف العظام والخطوب الجلل، فكانت له خير أنيس في وحشة الطريق ومحنة الابتلاء، فهي أول من صدقه وخفف عنه صدمة الوحي، وظلت تقاسمه المحن والبلاء طيلة ربع قرن من زواجها به، وفي العشرة أعوام من عمر الدعوة المكية، واجهت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها أذى

1 -الحجون نسبة إلى جبل بمكة يطلق عليه الحجون، وبه مقبرة المعلاة التي دفنت بها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

2 -أنظر تفاصيل الحصار ونقض الصحيفة في المصادر الآتية: صحيح البخاري، كتاب، الحج، باب: النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وكتاب: مناقب الأنصار، باب تقاسم المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص64، وابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص350-351.

المشركين ومحنة الحصار في شعب أبي طالب برباطة جأش وثبات وعزم، ولم تخذل نبي الله كما خذلت نوحا ولوطا زوجتاهما، فخانتاهما فكان عاقبتهما الخسران.

لكن قضاء الله الذي لا راد له ولا معقب لحكمه، يقضي بأن يفقدها النبي صلى الله عليه وسلم كما فقد عمه أبا طالب، في شهر واحد، شهر رمضان، وهو بأشد ما تكون الحاجة إليهما لمؤازرته ونصرته، ولأجل ذلك عظم حزنه عليهما.

وقد ماتت خديجة رضي الله عنها عن خمس وستين سنة، حسب القول المشهور بأنه صلى الله عليه وسلم تزوجها وهي في الأربعين، ووأما حسب القائلين بأنه تزوجها وعمرها ثمان وعشرين سنة، فتكون قد ماتت عن ثلاث وخمسين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره، وكان من شدة وفائه لذكراها يقول عنها: ((آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذّبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها، وحرم ولد غيرها))[1].

قال ابن إسحاق: كان صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئا يكرهه، من ردٍّ عليه، وتكذيب له عليه السَّلام، فيحزنه ذلك، إلا فرَّج الله عنه بخديجة، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت[2].

ومما ورد في فضلها في الصحيحين من حديث أبى هريرة أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام -أو إدام أو شراب- فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصَب. والقصب: اللؤلؤ المجوف.[3]

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[4].

1 -أخرجه ابن كثير في البداية وانهاية ج3 ص 126 وقال: إسناده لا بأس به.

2 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص240.

3 - صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها.

4 -مسند أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس بن عبد المطلب.

أما عمه أبو طالب، فقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم قصارى جهده في هدايته، لتكون نصرته له نصرة للدين، لا حمية للرحم والقرابة، لكن كل ميسر لما خلق له، فقد ذكر البخاري[1] أنه لما حضرت الوفاة أبا طالب قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه. فنزلت: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾[2]، وقوله: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[3].

وفي مسلم زيادة من **حديث أبي هريرة أن أبا طالب قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ((لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك)).**[4]

ولعل موت أبي طالب على ملة قريش وملة عبد المطلب من أشدّ أسباب حزنه صلى الله عليه وسلم، وكان أمله أن يختم الله لعمه بالإسلام على ملة إبراهيم، ليكون رفيقه في جنات الخلد مكافأة من الله له عما بذله في نصرة نبيه، ومع ذلك تلحق أبا طالب من شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ما يخفف عنه العذاب يوم القيامة، فقد أخرج البخاري عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال صلى الله عليه وسلم: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

وذكر ابن إسحاق روايات ضعيفة في إسلام أبي طالب ونطقه بالشهادة، وكذلك روي في إسلام عبد المطلب، وعبدالله وآمنة أبوي النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الله أحياهما فآمنا به، لكنها روايات واهية لا يعول عليها في مقاييس الصنعة الحديثية والله أعلم.

---

1 -صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: قصة أبي طالب.

2 -سورة التوبة: 113.

3 -سورة القصص: 56.

4 -صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت مالم يشرع في الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار المشركين.

ومن محبة النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره ترك الاستطالة والتوسع في هذا الموضوع، وقد كانوا لا يذكرون أبا جهل ترفقا بعكرمة وتألفا له، فكيف بالخوض في آباء خير الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما فاقم الأحزان وزاد في تأججها، اجتراء قريش على النبي وأصحابه، ونيلها منه بما لم تكن تجرؤ عليه في حياة عبد المطلب، فازداد غما إلى غم، ونذكر صورتين مشخصتين لهذه الجرأة فيما تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه وخليله أبو بكر الصديق:

فقد أوذي الصديق وكاد أن يفتك به طاغية قريش عتبة بن أبي ربيعة -كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند حديثنا عمن شملهم أذى قريش من الصحابة- فعقد العزم على الهجرة من مكة إلى الحبشة، فخرج حتى وصل برك الغماد فأرجعه ابن الدغنة في جواره، وقال له: ما مثلك بالذي يُخرج من مكة. فلزم الصديق داره وأقام فيها مصلى، فكان يصلي من الليل ويقرأ القرآن وكان رجلا بكاء، فكان الناس يجتمعون للاستماع إليه وهو يتلوا القرآن، ويحنون لقراءته ويرقون لحاله، فخافت قريش افتتان الناس به، فكلموا ابن الدغنة فنهاه عن ذلك، فرد عليه الصديق جواره واكتفى بجوار ربه[1].

ومن ذلك أيضا ما رواه ابن إسحاق أن سفيها من سفهاء قريش اعترضه صلى الله عليه وسلم، فنثر على رأسه التراب، ودخل بيته والتراب على رأسه فقامت إحدى بناته، فجعلت تغسل التراب عنه وهي تبكي، ورسول الله يقول لها: لا تبك يا بنية، فإن الله مانع أباك[2].

ولتتابع هذه الأحداث الحزينة وتواليها سمي هذا العام بعام الحزن، وبدأ يظهر للنبي أن أفق الدعوة بمكة ملبد بالغيوم، وأنه لا بد من البحث عن حاضنة جديدة للدعوة الإسلامية، والتماس موطن لها خارج مكة، تنطلق منه نحو العالم، فهذه الدعوة ربانية المصدر موصولة بالسماء، شاملة لكل البشر، عالمية جاءت لهداية الناس جميعا من عرب ومن عجم، وأفقها أرحب من شعاب مكة وفجاجها الضيقة.

---

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص272-274.

2 -نفسه، ج1 ص416.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو على أصحابه بشارات القرآن، التي تسلي قلوبهم وتنفض عنهم غبار اليأس والحزن، وتزيدهم إصرارا على مواصلة الطريق المقدس الذي اختارتهم العناية الربانية ليكونوا من جنوده ورجاله المصطفين، فكانوا يقرأون هذه البشارات في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِين * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون**﴾[1]، وفي قوله سبحانه: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِر * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر**﴾[2]، وقوله عز من قائل: ﴿ **لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم**﴾[3].

1 -سورة الصافات: 171-173.

2 -سورة القمر: 45.

3 -سورة الروم: 4-5.

# القسم الرابع:

# توطين الدعوة:

# من الدعوة خارج مكة والبحث عن وطن آمن للدعوة الإسلامية إلى الهجرة وبناء المجتمع الجديد

تعد هذه المرحلة بمثابة مرحلة انتقالية للتحول الكبير الذي ستعرفه الدعوة الإسلامية، إثر الهجرة إلى المدينة وتوطين الدعوة، ولذلك سنتناول في هذا القسم محورين، هما:

**الدعوة خارج مكة:** نناقش فيه جملة من الأحداث، نحو: الهجرة إلى الطائف، عرض الإسلام على الأفراد والقبائل في موسم الحج، الإسراء والمعراج، بيعة العقبة الأولى والثانية.

**الهجرة النبوية إلى المدينة وأسس بناء المجتمع الجديد:** يتم فيه تناول الهجرة إلى المدينة، ووقائعها، وأحداثها، ودروسها، وحكمها، والوضع العام بالمدينة أثناء الهجرة، والإجراءات الأولى لبناء الدولة الإسلامية في المدينة.

## أولا-الدعوة خارج مكة:

رأينا سابقا مبلغ اجتراء قريش على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبي طالب، وتفاقم أحزانه بعد فقده للسندين معا، السند المادي مجسدا في أبي طالب، والسند المعنوي الذي تمثله زوجه خديجة رضي الله عنها، وقد جرت حكمته عز وجل أن لا يكون لنبيه تعلق بغيره سبحانه، وأن لا يكون للدعوة في هذه المرحلة نصير سواه.

ولعل أهم ما يجلي الأهمية الحاسمة لحضور المرأة في مسار الدعوة الإسلامية في العهد النبوي ما اضطلعت به أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من وظائف جليلة، وبموتها تركت فراغا كبيرا كان لا بد من سده وتداركه، فجاء زواجه صلى الله عليه وسلم بسيدة كريمة عظيمة القدر، كانت أشبه بسمت أم المؤمنين خديجة وهديها، وهي أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، وكان زواجه بها صلى الله عليه وسلم في شهر شوال سنة 10 من البعثة، وهي ممن أسلم قديما رفقة زوجها السكران بن عمرو، وهاجرا معا إلى الحبشة، ثم مات زوجها، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم عن كبر، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة رضي الله عنها، فزواجه صلى الله عليه وسلم من سودة في هذه المرحلة الحساسة من عمر الدعوة الإسلامية يدل على حاجة الداعية، وإن كان نبيا مرسلا، للسند المعنوي الذي تحققه الزوجة الصالحة المؤمنة الحافظة للغيب.

وبعد هذا الإجراء الذي يعد بمثابة إعادة ترتيب للبيت الداخلي الخاص، بدأ التفكير في الأفق الجديد للدعوة الإسلامية، فكانت البداية بالهجرة إلى الطائف.

## الهجرة إلى الطائف:

قصد النبي صلى الله عليه وسلم الطائف صحبة مولاه زيد بن حارثة، في شهر شوال من السنة العاشرة، والطائف قرية كبيرة تبعد عن مكة بنحو ستين ميلا، تسكنها قبيلة ثقيف أحد بطون هوازن، وقد قطعها مشيا على قدميه، وكانت رحلته أشبه بجولة دعوية، فكان كلما مر على قبيلة يدعوهم إلى الإسلام دون أن يلقى استجابة من أحد.

فلما وصل صلى الله عليه وسلم الطائف مكث عشرة أيام يدعو أهلها إلى الإسلام، وممن عرض عليهم دعوته ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وأشرافهم من أبناء عمرو بن عمير الثقفي: ابن عبد يا ليل، ومسعود، وحبيب، فردوا عليه ردا منكرا، قال أحدهم: أمرغ ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الثاني: أما وجد الله أحدا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك، فقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلب منهم أن يكتموا أمره عن قريش[1].

فلما ضاقوا ذرعا بالنبي صلى الله عليه وسلم، طلبوا إليه أن يخرج عن أرضهم، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فتبعوه وهو يريد الخروج، ووقفوا له في صفين، يسبونه بعبارات السفه، ويرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، وتخضبت نعلاه بالدماء، وكان زيد بن حارثة يقيه الحجارة بنفسه، حتى شجت رأسه عدة شجاج، واستمر هذا المشهد الفظيع المؤثر حتى بلوغه صلى الله عليه وسلم مزرعة لعتبة وشيبة ابنا ربيعة، على بعد ثلاثة أميال من الطائف، فرجعوا عنه وتركوه[2].

وفي بستان ابني ربيعة جلس النبي الكريم يستظل إلى شجرة من عنب، وقد أنهكه التعب وأثخنته الجراح، فطفق يناجي ربه ويشكو إليه بثه وأحزانه، وهو يقول: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات،

1 -نجيب آبادي شاكر أكبر خان، تاريخ الإسلام، مكتبة رحمت ديوبند، الهند، دت، ج1 ص122.

2 -أنظر: ابن سعد، الطبقات، م س، ج1 ص196.

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

وبعد هذا الدعاء العميق والمناجاة الدافئة والاعتذار الرقيق، جاءت المواساة والسلوان، فرقّ ابنا ربيعة لحال النبي صلى الله عليه وسلم، وأشفقا عليه للرحم الذي بينهما، فأرسلا غلامهما عداس بقطف من عنب، فمد إليه النبي صلى الله عليه وسلم يده، وقال: بسم الله، ثم أكل، فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: أنا نصراني من أهل نينوى، فقال رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله: ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس يقبّل رأس رسول الله ويديه ورجليه، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[2].

فشاء الله سبحانه أن تكون حصيلة هذه الجولة الدعوية الشاقة، والحركة المباركة، استجابة عبد نصراني مملوك لاثنين من صناديد الشرك، وكأنها إشارة ربانية بأن العباد لا يتفاضلون بمقاييس الشرف والجاه والسيادة الزائلة، بل بما أودع الله في قلوبهم من مكنونات الإيمان والتقوى، وأن فضل الله تعالى ورحمته وهدايته تسع الجميع، سادة وعبيدا، وفقراء وأغنياء، وكأن هذه الرسالة الخاتمة أخذت على عاتقها تحرير الإنسانية من كل منازع العبودية وأشكالها، وتحقيق الالتحام العجيب بكل المؤمنين الصادقين من أتباع الرسل.

وفي أثناء عودته صلى الله عليه وسلم من الطائف ومغادرته بستان ابني ربيعة، حتى إذا بلغ قرن المنازل أتاه جبريل ومعه ملك الجبال يستأمره في أن يطبِق على أهل مكة الأخشبين.

روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال،

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص420.
2 -نفسه، ج1 ص421.

فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت -وأنا مهموم- على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (وهو المسمى بقرن المنازل) فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن شئت لأطبق عليهم الأخشبين، (والأخشبان هما جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر الذي يقابله هو القعيقعان)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بل أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا[1].»

وفي جوابه صلى الله عليه وسلم لملك الجبال تتجلى عظمة النبي ورحمته، وكمال خُلقه الموصوف في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم**﴾[2].

وبعد هذا المدد الغيبي الذي أمده الله به، تأتي واقعة أخرى ستزيد قلبه طمأنينة وسلوانا، فلما بلغ عليه الصلاة والسلام وادي نخلة على طريق مكة، بعث الله إليه نفرا من الجن يستمعون تلاوته للقرآن، وهو قائم يصلي من جوف الليل، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا[3].

وقد قص الله تعالى خبرهم في موضعين من القرآن، في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِين * قَالُوا ياقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيم * ياقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**

1 -صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، وصحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين.

2 -سورة التوبة:128-129.

3 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص421.

**وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيم﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾**[2].

لقد كانت هذه الواقعة نصرا غيبيا للنبي صلى الله عليه وسلم، زادته يقينا وإصرارا على مواصلة دعوته، فانقشعت عنه سحابة الحزن واليأس، ولا حت له أعلام النصر وبشائره، فعقد العزم على دخول مكة من جديد، واستئناف دعوته منها، لاسيما وقد كان موسم الحج قد أزف، ووفود قبائل العرب أوشكت على القدوم إلى مكة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟ فقال يا زيد: إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه، ثم أرسل رجلا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق وإلى سهيل بن عمرو فلم يجيباه، ثم أرسل إلى مطعم بن عدي يخبره أنه داخل مكة في جواره، فاستجاب له مطعم، ودعا بنيه وقومه إلى حمل السلاح، ونادى في قريش إنه قد أجار محمدا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة حتى انتهى إلى المسجد فصلى ركعتين، ومطعم وبنيه يحمونه بالسلاح حتى دخل بيته، وقيل: إن أبا جهل سأل مطعما: أمجير أنت أم متابع؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت[3].

وقد حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الموقف المشهود، فقال في أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[4].

## الإسراء والمعراج:

تضاربت الروايات عن تاريخ حدوث الإسراء والمعراج، والذي يرجح أنها في أواخر الفترة المكية، أي بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، لأنه ثبت أن الصلاة لم تفرض إلا بعد وفاتها، ولا خلاف أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج.

وقد جمع ابن القيم بين الروايات الصحيحة الواردة في الإسراء، فقال: «ثم أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبا

---

1 -سورة الأحقاف: 29-30-31.

2 -سورة الجن: 1-2.

3 -أنظر: ابن سعد، الطبقات، م س، ج10 ص196، وابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص419-422.

4 -صحيح البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: ما منّ النبي صلى الله عليه وسلم على الأسرى من غير أن يخمس.

على البراق، صحبة جبريل عليهما السلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماما، وربط البراق بحلقة باب المسجد،.ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر فسلم عليه، فرد عليه السلام، ورحب به، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به، وأقرّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسفَ فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس فسلم عليه، ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى بن عمران، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاما بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم فسلم عليه، ورحب به وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى فقال له: بم أمرت؟ قال: بخمسين صلاة، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه (هذا لفظ البخاري في بعض الطرق)، فوضع عنه عشرا، ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خمسا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم، فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي[1].

ومن جملة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم وحصل له من الوقائع، نذكر منها:

-وقوع حادثة شق الصدر للنبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى.

---

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص47-48.

-عرض عليه اللبن والخمر فاختار اللبن، فقيل له: أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

-رأى أربعة من أنهار الجنة، نهران ظاهران ونهران باطنان.

-رأى الجنة والنار، ورأى مالكا خازن النار، وليس على وجهه بشر.

-ورأى فصولا من أهوال ما بعد الموت، وأحوال المجرمين وهم يعذبون، ومنهم أكلة مال اليتيم، وآكلو الربا، وآل فرعون، والزناة، وغيرهم ممن قامت عليهم الحجة، وحقت عليهم كلمة العذاب، والعياذ بالله.

فلما أصبح صلى الله عليه وسلم في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلّاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئا، وأخبرهم عن عيرهم التي عاينها في مسراه ورجوعه، ووقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا، وأبى الظالمون إلا كفورا[1].

وكان قد مر صلى الله عليه وسلم بقافلة لقريش في ذهابه فدلهم على بعير ندّ منهم، وفي رجوعه شرب من إناء لهم وتركه مغطى، فكانت علامة على صدقه.

وقد لقب أبو بكر بالصديق، بعد تصديقه للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة من غير تردد.

لقد كانت واقعة الإسراء والمعراج معجزة عظيمة من معجزاته صلى الله عليه وسلم، وقد لخص القرآن الحكمة منها في قوله جل وعز: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾**[2].

1 -نفسه، ج1 ص48.

2 -سورة الإسراء: 1.

والحكمة من اطلاعه عز وجل على آياته الكبرى في الإسراء والمعراج، ليحصل له عين اليقين، كما في قوله سبحانه: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[1]، وعين اليقين يحصل بالرؤية والمعاينة كما في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾[2].

ويتبين من السياق الذي حدثت فيه معجزة الإسراء، بعد عام الحزن، وإثر اشتداد أذى قريش بالمسلمين، وانسداد أفق الدعوة الإسلامية بمكة، أنها كانت نقلة أساسية للدعوة نحو الأفق الكوني الأرحب، فهذه الدعوة المباركة هي أوسع من فيافي مكة وصخورها الجدباء، إنها دعوة موصولة بالسماء، تتجاوز عالم الشهادة نحو الأفق الملكوتي، ذلك الأفق اللانهائي الذي حير عقلاء البشر على مر العصور من فلاسفة ومفكرين وكهنة ومنجمين وفلكيين... فكل منهم تخيله على شاكلة معينة، وها هو نبي الإنسانية يحلّق في الأعالي، يستكشف الأفق العجيب، ويعاين من عجائبه ما يذهب بالألباب، ويحير العقول، لولا تثبيت الله له.

إنها مرحلة جديدة سواء للنبي الكريم أو للدعوة، أما النبي صلى الله عليه وسلم فسينتقل إيمانه العميق من التصديق المستمد من التلقي الملَكي الجبريلي (نسبة للملك جبريل)، إلى التصديق اليقيني الملكوتي (نسبة لعالم الملكوت)، لأن الله تعالى شاء أن يريه عيانا من آياته الكبرى.

أما أثر ذلك على الدعوة الإسلامية، فقد كان الإسراء والمعراج إيذانا ربانيا بالانتقال من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين في الأرض، وذلك ما يستنتج من نزول سورة الإسراء، في هذه المرحلة، التي تضمنت عتابا قاسيا لبني إسرائيل، كما حملت في طياتها بشرى للمسلمين بالاستعداد لاستشراف أفق التمكين، الذي ولجه بنو إسرائيل من قبل، لكنها تحمل تحذيرا مبطنا من مآل بني إسرائيل، وتنبيها أكيدا بضرورة الاعتبار والاتعاظ مما أصابهم، نتيجة كفرهم وتخاذلهم، وظلمهم واستكبارهم في الأرض.

---

1 -سورة الأنعام: 75.

2 -سورة التكاثر: 7.

## عرض الإسلام على وفود العرب في موسم الحج:

كانت عودته صلى الله عليه وسلم من الطائف إلى مكة في ذي القعدة من السنة العاشرة، ليستأنف عرض الإسلام على وفود قبائل العرب وأفرادهم[1]، وروى الترمذي عن الزهري قال: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وعدرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد.

ومن المؤكد أنه عمَل شرع فيه النبي صلى الله عليه وسلم لسنوات سابقة في عزم وإصرار، رغم أنه لم يكن يلق استجابة منهم، وقد ذكر ابن إسحاق أن أقبح ما لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من بني حنيفة، وأما بنو عامر بن صعصعة فأتاهم صلى الله عليه وسلم إلى منازلهم ودعاهم إلى الإسلام وعرض عليهم نفسه، فقال رجل من أشرافهم وهو بحيرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، ثم ندموا على ذلك وتلاوموا بينهم بعد عودتهم إلى ديارهم[2].

## من دخلوا الإسلام من خارج مكة في هذه المرحلة:

وكان من ثمار هذه المرحلة دخول بعض وجوه العرب من خارج مكة، ومنهم:

**طفيل بن عمرو الدوسي:** وكان شاعرا لبيبا سيدا على قبيلة دوس، ودوس أشبه بإمارة في ناحية من اليمن، قدم مكة في السنة الحادية عشرة من البعثة، فاستقبله صناديد قريش، فما زالوا به يحذرونه من الاستماع للنبي صلى الله عليه وسلم، حتى لا يصيبه من سحر كلامه الذي يفرق بين الرجل وأبيه وأخيه وزوجه، فلما أتى المسجد إذا بالنبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فعقد العزم على الاستماع إليه، فوقع الإسلام في قلبه، ثم قصد النبي صلى

1 -المنصور فوري، رحمة للعالمين، مرجع سابق، ج1 ص74.

2 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص424-423.

الله عليه وسلم في بيته، فتلا عليه القرآن، وعرض عليه الإسلام فاستجاب، وفي ذلك يقول رضي الله عنه: فو الله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية. وكانت آيته أن جعل الله له نورا في وجهه مثل المصباح، فقال اللهم في غير وجهي، أخشى أن يقولوا هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، ثم دعا أهله إلى الإسلام فاستجابوا، وأبطأ عليه قومه فلم يسلموا إلا بعد الحديبية، وقدم بهم المدينة، وقد استشهد رضي الله عنه يوم اليمامة[1].

**سويد بن صامت:** وهو من أهل يثرب، كان شاعرا لبيبا ذا شرف ونسب، يلقبه قومه بالكامل، قدم مكة معتمرا، فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام، فقال لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك، قال: حكمة لقمان، قال اعرضها علي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدي ونور، فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن، وكان إسلامه في أوائل سنة إحدى عشر من البعثة، لكنه مات قبل الهجرة، إذ قتل يوم بعاث في حرب الأوس والخزرج[2].

**إياس بن معاذ:** كان غلاما صغيرا، قدم مع وفد من الأوس، يلتمسون نصرة قريش وحلفهم على قومهم من الخزرج قبل يوم بعاث، أوائل سنة 11 من البعثة، وكانت العداوة مشتعلة بين القبيلتين بيثرب، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم، وعرض عليهم الإسلام، فأبوا، ولم يستجب غير إياس بن معاذ، فرجعوا دون أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش، ولم يلبث إياس أن مات، وكان يهلل ويكبر ويحمد ويسبح، فلا يشكون أنه مات مسلما[3].

**أبو ذر الغفاري:** كانت قبيلة غفار بناحية يثرب، فبلغ خبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب عبر سويد بن صامت وإياس بن معاذ، وممن وقع عليهم الخبر من أهل غفار أبو ذر الغفاري، فكان ذلك سببا في إسلامه.

---

1 -نفسه، ج1 ص385.

2 -نجيب آبادي، تاريخ الإسلام، ج1 ص125.

3 -ابن هشام، السيرة النبوية، ج1 ص427-482.

أخرج البخاري عن ابن عباس أن أبا ذر قدم مكة ليبلو خبر النبي صلى الله عليه وسلم، فالتقى عليا، فأدخله على النبي صلى الله عليه وسلم، فعرض عليه الإسلام فأسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك قدومنا فأقبِل، فقال أبو ذر قلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ، فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس فأكب علي، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلا من غفار؟ ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عني، فلما أن أصبحت الغد، رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بي ما صنع بالأمس، فأدركني العباس وقال مثل مقالته بالأمس[1].

**ضماد بن ثعلبة الأزدي:** وهو يمني من أزد شنوءة، كان من رقاة العرب، فلما قدم مكة سمع قريشا تزعم أن محمدا مجنون، فاستأذنهم في لقائه لعله يشفى على يديه، فأتاه فقال: يا محمد إني أرقي من هذا الريح فهل لك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الحمد لله نحمه ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد، فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، أو قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه[2].

**إسلام النفر الستة من الخزرج:** خرج النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة من ليالي موسم الحج من السنة الحادية عشرة، ومعه أبو بكر الصديق وعلي، يريد منازل بني ثعلبة: ذهل وشيبان، لدعوتهم إلى الإسلام، فردوا بأحسن الكلام وأرجاه دون أن يدخلوا في الإسلام، ثم مر النبي صلى الله عليه وسلم بمنى، فلقي **ستة نفر** من الخزرج، فعمد إليهم فكلمهم عن الإسلام، ورغبهم فيه، وتلا عليهم القرآن، فتكلموا بينهم وعرفوا أنه النبي الذي تتوعدهم به يهود، وخافوا أن يسبقوهم إليه، وأملوا أن يكون مقدمه عليهم سببا في إطفاء نار العداوة وتوقف الحروب بينهم، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من

1 -صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب قصة زمزم، وكتاب مناقب الأنصار: باب إسلام أبي ذر.

2 -صحيح مسلم، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة.

العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. فلما رجعوا إلى يثرب دعوا قومهم إلى الإسلام، حتى فشا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في سائر بيوتات الأوس والخزرج.

وهؤلاء النفر الستة من الخزرج، هم:

أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث. (من بني النجار).

رافع بن مالك. (من بني زريق).

قطبة بن عامر. (من بني سلمة).

عقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب. (من بني حرام بن كعب).

## الحكمة من إسلام بعض عقلاء العرب وشعرائهم:

ومنهم شاعرا العرب، طفيل بن عمرو الدوسي، وسويد بن صامت، وكذلك ضماد بن ثعلبة الأزدي الذي يرقي من الريح، ففي إسلامهم بمجرد الاستماع إلى القرآن من دون تردد، ما يدل حقيقة على إعجاز القرآن لبلغاء العرب، وعقلائهم وشعرائهم من أهل الفصاحة والبيان، وقد عزم سويد فعلا على مضاهاة القرآن بما يحفظه من حكمة لقمان، فلما سمع القرآن اهتز له كيانه وأخذ بشغاف قلبه، وكذلك طفيل، أما ضماد فقد بلغ من انبهاره بكلمات النبي صلى الله عليه وسلم، أن طلب منه أن يعيد تكرار تلك الكلمات والأذكار التي وعظه بها، فأعادهن عليه ثلاثا فاستقرت أنوارها القدسية في سويداء قلبه.

## الحكمة من إقبال أهل يثرب على الإسلام:

لعل إقبال أفراد من يثرب على الإسلام دون تردد، يرجع بعد التوفيق الإلهي إلى أمرين:

**أسباب ذاتية:** تتعلق بحالة العداء المستحكم بين فرعي يثرب الأوس والخزرج، والصراع الدامي الذي كاد يفني القبيلتين يوم بعاث ويذهب بريحهم، فكانت لهم رغبة جامحة في تجاوز هذا الوضع القاسي، فما إن سمع النفر منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، حتى لاح لهم الأمل

بالخلاص، ولذلك قالوا له: «إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك»[1].

**أسباب موضوعية:** تتمثل في إدراك أهل يثرب بتفوق جيرانهم اليهود في المعرفة الدينية والثقافية والتاريخية، بسبب انتسابهم للأنبياء، وامتلاكهم للكتب السماوية، فكانوا أكثر من باقي العرب معرفة بأخبار النبوات وتقبلا لها، بسبب مخالطتهم لليهود، ولذلك لما كلم النبي صلى الله عليه وسلم النفر الستة، قالوا فيما بينهم: «إنه النبي الذي تتوعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا»[2].

## بيعة العقبة الأولى:

أثمرت جهود النفر الستة من الخزرج الذين دخلوا الإسلام بعدما لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم في موسم الحج من السنة الحادية عشرة من البعثة، فاستقدموا معهم في موسم الحج من السنة الثانية عشر من البعثة نفرا آخرين من قومهم من الخزرج والأوس، فكانوا اثني عشر رجلا، فحضر خمسة من هؤلاء الستة (سوى جابر بن عبد الله بن رئاب) وسبعة آخرون، هم:

معاذ بن الحارث (خزرجي من بني النجار).

ذكوان بن عبد القيس (خزرجي من بني رزيق).

عبادة بن الصامت (خزرجي من بني غنم).

يزيد بن ثعلبة (خزرجي من بني غنم).

العباس بن عبادة بن نضلة (خزرجي من بني سالم).

أبو الهيثم بن التيهان (أوسي من بني عبد الأشهل).

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص429-430.
2 -نفسه، ج1 ص328.

عويم بن ساعدة (أوسي من بني عمرو بن عوف)[1].

وقد كانت بيعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم تسمى بيعة النساء، لأنها لم تتضمن الجهاد في سبيل الله، وقد روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تعالوا: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تاتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، قال: فبايعناه على ذلك[2].

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير العبدري، ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، ويعلمهم شعائر الإسلام، وينشر الإسلام بينهم، وكان فتى تقيا ورعا من السابقين إلى الإسلام، فلقبوه بالقارئ، وهو أول سفير في الإسلام.

وقد كان لمصعب رضي الله عنه بمعية أسعد بن زرارة أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية بيثرب، وخصوصا بعد إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ سيدي بني عبد الأشهل، وقد ذكر ابن إسحاق قصة إسلامهما، وكانا يريدان صد مصعب وأسعد عن نشر الإسلام بين قومهم من بني عبد الأشهل، فلما استمعا للقرآن وقع في قلبيهما فأثمر هداية وإيمانا.

وبإسلام سعد بن معاذ أسلم سائر بني عبد الأشهل إلا رجلا اسمه عمرو بن ثابت ولقبه الأصيرم، تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فقاتل مع المسلمين واستشهد، فقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((عمل قليلا وأجر كثيرا)) [3]، وقال فيه أيضا فيما رواه أحمد وحسنه ابن حجر: ((إنه لمن أهل الجنة))، وكان أبو هريرة يقول: ((حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط))، يريد الأصيرم، وليس معنى ذلك أن الصلاة ليست داخلة في الإيمان، لأن الأصيرم أسلم للتو ودخل في الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم، فأدى فريضة الوقت، ولم يتمكن من الصلاة أصلا.

---

1 -نفسه، ج1 ص431-433.

2 -صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: وفود الأنصار.

3 -صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: عمل صالح قبل القتال.

## بيعة العقبة الثانية:

في السنة الثالثة عشرة من البعثة حضر وفد كبير من أهل يثرب لموسم الحج، فيهم أكثر من سبعين ممن أسلموا من الأوس والخزرج، فتواعدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سرا على اللقاء أواسط أيام التشريق عند الشعب في منى، قال كعب بن مالك يصف ظروف اللقاء: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لموعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائنا: أم عمارة نسيبة بنت كعب (من بني النجار)، وأم منيع أسماء بنت عمرو (من بني سلمة)، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، وكان أول متكلم، وكان مما قال العباس: يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال كعب بن مالك: فقلنا له قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت[1].

ثم عرض النبي صلى الله عليه وسلم لهم بنود البيعة التي سيتم التعاقد بشأنها، عن جابر رضي الله عنه: "فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قال: " تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت يثرب، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة"[2].

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص440-441.

2- أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وكان أول من بايعه أسعد بن زرارة ثم تتابع القوم يبايعونه، ويضربون على يده، أما المرأتان فكانت بيعتهما بالقول لا بالمصافحة[1]، وقد أبى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يشرف المرأة بإشراكها في عقد البيعة، لتكون حاضرة في هذا الموقف المشهود، الذي سيكون له الأثر البالغ في صناعة التاريخ وبزوغ فجر الأمة الإسلامية، انطلاقا من الوطن الجديد: المدينة المنورة.

لقد تجلت في هذه اللحظة التاريخية العديد من معالم الفكر السامي، وانكشفت عن أهم مرتكزات التحضر الإسلامي، والمتمثلة في:

مبدأ التعاقد، الذي تم من خلال البيعة المنعقدين بين النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار، ورتبت حقوقا والتزامات في ذمة كل طرف.

الاعتراف بالمرأة عنصرا أساسيا في الشورى وعملية التعاقد، والإقرار بأهليتها الكاملة لأن تكون مستأمنة على كتم أسرار الدعوة عن المشركين في تلك اللحظة الفارقة.

مبدأ الانتخاب للنقباء (الجهاز التنفيذي) الذين سيتولون متابعة تنفيذ بنود عقد البيعة.

موضوع التعاقد هو المشروع الرسالي للدعوة الإسلامية، بكل أبعاده العقدية والأخلاقية والتشريعية.

تحقيق الوحدة الاجتماعية والسياسية عبر وحدة الجهاز التنفيذي أو هيئة القيادة، ووحدة المشروع الحضاري، وإضفاء شرعية عليها غير قابلة للمنازعة، وهو ما كان يفتقد إليه أهل يثرب بسبب العداء والتطاحن القبلي بين الأوس والخزرج.

وجدير بالذكر أن هذه البنود جسدت الإرهاصات الأولى لتشكل كيان الدولة الإسلامية، وبناء الأمة، لكن هذه الإجراءات همت بالأساس تدبير هذه المرحلة الانتقالية، أي مرحلة التحول نحو بناء وطن آمن للدعوة الإسلامية متعدد الأقوام والأعراق.

---

1 -صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: كيفية بيعة النساء.

وكان النقباء الذين تم انتخابهم: اثنا عشر، كنقباء بني إسرائيل، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس:

من الخزرج: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.

ومن الأوس: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر.

وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم على هؤلاء النقباء عهدا آخر بصفتهم قادة للأنصار، فقال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي (أي المسلمين) قالوا: نعم[1].

وقد بلغ الخبر قريشا فارتجوا له وكادوا يفقدون صوابهم، فقصدوا مضارب أهل يثرب وقدموا لهم احتجاجا شديدا، فانبعث المشركون من أهل يثرب يحلفون على نفي ذلك، وما كان لهم علم بالبيعة لأنها تمت منهم خفية، ومنهم عبد الله بن أبي بن سلول، أما المسلمون منهم فلاذوا بالصمت، دون نفي أو إثبات.

ثم ما لبثت قريش أن استوثقت من الخبر، لكن بعد مغادرة وفد يثرب وفوات الأوان، فلاحقوهم فلم يظفروا إلا بسعد بن عبادة فوثقوه وقدموا به إلى مكة، فاستخلصه منهم المطعم بن عدي وحارث بن حرب بن أمية، وكان يجير على قوافلهما التي تمر على المدينة[2].

## ثانيا-الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة وأسس بناء المجتمع الجديد:

### الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة:

بعد بيعة العقبة الثانية أصبح الطريق ممهدا للنبي وأصحابه نحو الوطن الجديد (يثرب)، وقد وصفه لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص243-246.

2 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص51.

بين لابتين))[1]، فتتابعت طلائع المسلمين بعد إذن النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالهجرة، فكان أول من هاجر نحو المدينة أبو سلمة وذلك قبل العقبة الكبرى بسنة، وقد منعه قومه أن يصحب معه زوجه وولده، ثم صهيب بن سنان الرومي، وشرط عليه الكفار ترك ماله لهم مقابل أن يخلوا سبيله. وأكثر الصحابة خرجوا من مكة مستخفين إلا عمر فقد خرج في عز النهار دون أن تمسه قريش بأذى، وهمّ أبو بكر بالهجرة وتجهز لها، فاستمهله النبي صلى الله عليه وسلم حتى يؤذن له ليصحبه، فجهز الصديق راحلتين، فكان يعلفهما أربعة أشهر لأجل ذلك.

## انعقاد مجلس قريش بدار الندوة:

أدركت قريش خطر الموقف وطبيعة التحولات الجديدة في صراعها مع الدعوة الإسلامية، وخافت أن يصبح للمسلمين وطن مستقل خارج مكة، بعد تتابع أخبار هجرة الصحابة نحو يثرب، ذات الموقع الاستراتيجي الواقع على الطريق التجاري نحو الشام، فاستبَقوا الموقف بالاجتماع في دار الندوة، وكان ذلك يوم الخميس 26 صفر سنة 14 من الهجرة الموافق ل12 شتنبر سنة 622م[2]، وذلك بعد شهرين ونصف –تقريبا- من بيعة العقبة الكبرى، وقد حضر الاجتماع سادة وممثلو بطون قريش، ومنهم:

-بنو مخزوم: أبو جهل عمرو بن هشام.

-جمح: أمية بن خلف.

-بنو سهم: نبيه بن الحجاج، ومنبه بن الحجاج.

-بنو أسد بن عبد العزى: أبو البحتري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام.

-بنو عبد الدار: النضر بن الحارث.

-نوفل بن عبد مناف: جبير بن مطعم، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر.

1 -أخرجه البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

2 -صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المحتوم، مرجع سابق، ص113، وذلك بعد مراجعة تحقيق محمد سليمان المنصور فوري في رحمة للعالمين.

-بنو عبد شمس بن عبد مناف: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب.

وقد حضر الاجتماع إبليس في صورة شيخ نجدي، فأسهم في دفع المشركين نحو تبني الرأي الذي يقول باغتيال النبي صلى الله عليه وسلم والتخلص منه، وكان النقاش يدور بين ثلاثة اقتراحات[1]:

الأول: حبسه صلى الله عليه وسلم في الحديد حتى تدركه المنية، كما فعلوا بالشعراء مثل زهير والنابغة، قال به أبو البحتري.

الثاني: نفيه خارج مكة وتركه لحاله، قال به زمعة بن الأسود، لكن إبليس (الذي حضر في صورة شيخ نجدي) صرفهم عن الرأيين وزين لهم الاقتراح الثالث.

الثالث: تقدم به أبو جهل، ويقضي بأن يؤخذ من كل قبيلة فتى شابا قويا ذا نسب وشرف، فيعطى كل واحد منهم سيفا، فيعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه، فيتفرق دمه بين القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلها، فيرضون بالعقل والدية.

فكان هذا هو الرأي الذي اتفق عليه جمع قريش في دار الندوة، وحددوا له موعدا للتنفيذ، وقد حكى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين**﴾[2]، فأخبر الله تعالى نبيه فنزل جبريل آمرا النبي صلى الله عليه وسلم ألا يبيت على فراشه تلك الليلة، وأذن له بالخروج فأعلم الصديق بذلك.

## تخطيط النبي صلى الله عليه وسلم للهجرة:

تتشابك ثنائية الغيب والأسباب في حدث الهجرة، وتتعانق في تكامل وتجاور لا تناقض فيه، كما في الكثير من وقائع السيرة المطهرة، فقد عقدت قريش اجتماعها بسرية تامة، لكن الخبر لم يتم تسريبه بالطرق المألوفة، بل جاء من السماء، فشرع النبي صلى الله عليه وسلم

1 -سيرة ابن هشام، م س، ج1 ص480-482.
2 -سورة الأنفال: 30.

وصاحبه في إعداد الخطة وتدبر الأسباب، ذلك أن التصديق بالغيب والعمل بالأسباب، كلاهما خضوع وامتثال لأمر الله، وإحكام لسننه الماضية، فكانت خطة الهجرة تتم وفق الإجراءات الآتية:

-مغادرة النبي صلى الله عليه وسلم داره، والتمويه على المشركين بترك علي بن أبي طالب يبيت على فراشه.

-سلوك الطريق الجنوبي بدل الشمالي، واللجوء إلى غار ثور حتى يهدأ الطلب، وتتوقف دوريات التفتيش.

-تدبير أمر من يأتيهم بالطعام ويزودهم بالأخبار، وهم: عامر بن فهيرة، وعبد الله بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، وذلك طيلة ثلاثة أيام من إقامتهم بالغار.

-الاستعانة بدليل خبير بالطريق، وهو عبد الله بن أريقط الديلي، فسلماه راحلتيهما، وواعداه بعد ثلاثة أيام عند غار ثور، فانحرف عن الطريق الرئيسي، واتجه بهم نحو الجنوب، ثم انحاز غربا نحو الساحل، ثم رجع بهم إلى الشمال سالكا طريقا ساحليا غير مألوف.

فتمكنا بفضل الله تعالى من إفشال مخطط قريش، وبفضل هذا التضافر بين التأييد الغيبي والتخطيط المحكم.

وكانت قريش قد أعدت جائزة مغرية لمن يأتيها بالنبي صلى الله عليه وسلم حيا أو ميتا، وكان قوامها مائة بعير، فاقتفى سراقة بن مالك أثرهم على فرس له، حتى إذا أدركهم تعثرت دابته وسطع غبار كثيف نحو السماء مثل الدخان، فخاف سراقة وعلم أنه ممنوع منهما، فنادى عليهما بالأمان، ثم أسلم، وطلبوا إليه أن يكتم عنهم، فرجع يخذل القوم ويصرفهم عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم(1).

وكذلك أبو بريدة الذي تبع النبي صلى الله عليه وسلم طمعا في جائزة قريش، فلما كلمه النبي ودعاه إلى الله، شرح الله صدره إلى الإسلام، وأسلم معه سبعين رجلا من قومه(2).

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص53-54.

2 -المنصور فوري، رحمة للعالمين، م س، ج1 ص101.

## نزول النبي صلى الله عليه وسلم بقباء:

ظل المسلمون من أهل يثرب يترقبون، رفقة من هاجروا من أهل مكة، بشوق كبير قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا يرقبون قدومه كل يوم بالحرة، وكان أول من رمقه يهودي، فقال يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، وانطلق التكبير في بني عمرو بن عوف، وظن بعض الأنصار أن النبي هو أبو بكر لتكلمه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ولأنه كانوا يبدو أسنّ من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعرفوه إلا بعد أن رأوا الصديق يظلّل النبي صلى الله عليه وسلم ببردته لشدة الحر.

فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء أربعة أيام، وأسس مسجد قباء، وسار في حماية بني النجار وأدى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في مائة رجل، ثم دخل بعدها يثرب، فسميت من حينها مدينة رسول الله، فاستقبله أهلها بالأهازيج والأناشيد التي تعبر عن فرحهم وسرورهم بمقدمه الشريف[1].

ومن أشهر ما يذكر من ذلك:

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع[2].

وكان كل حي يمر به النبي صلى الله عليه وسلم يتبادرون ناقته ويرغبون في نزوله عندهم، فيقول: دعوها فإنها مأمورة، حتى وصلت موضع المسجد فبركت، فهناك أقيم المسجد، وأقام صلى الله عليه وسلم بديار أخواله من بني النجار، فأقام بدار أبي أيوب الأنصاري. ولم تمض سوى أيام حتى وصل أهله، وفيهم: زوجه سودة بنت زمعة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة

1 -ابن هشام، السيرة النبوية م س، ج1 ص495.

2 -المنصور فوري، رحمة للعالمين، م س، ج1 ص106.

رد العلامة المنصور فوري على ابن القيم في زعمه في زاد المعاد (ج3 ص10) بأن هذه الأشعار كانت عند رجوعه صلى الله عليه وسلم من تبوك، ورجح بالدلائل ما يؤكد أنها كانت عند قدومه للمدينة.

بن زيد، وأم أيمن، ومعهم آل الصديق: عبد الله وعائشة. وبقيت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم عند أبي العاص ولم تتمكن من الهجرة إلا بعد بدر[1].

ولم تكن الهجرة مجرد انتقال من وطن لآخر، بل كانت قرارا مصيريا لا بد منه، لأجل البحث عن الحاضنة الاجتماعية للدعوة الإسلامية، وتلمس البيئة المناسبة لانطلاق الدعوة نحو الأفق العالمي المنشود، وبالانتقال صوب الوطن الجديد، يطوي المسلمون صفحات مؤلمة وفصولا حزينة قاسية من الاستضعاف القرشي، طيلة المرحلة المكية، واستقبلوا مرحلة جديدة لا تقل عنها جسامة من حيث التحديات والخطوب.

فالهجرة إذا حققت النقلة من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين، ومن مرحلة الدعوة وكف اليد، إلى مرحلة تتشابك وتتعانق فيها أعباء الدعوة والدولة معا.

## المشهد الراهن في المدينة إبان الهجرة وأسس بناء المجتمع الجديد:

### المشهد الراهن في المدينة إبان الهجرة:

يتشكل مجتمع المدينة بعيد الهجرة من خمس فئات:

**الفئة الأولى:** أهل المدينة الذين دخلوا توا في الإسلام، ويتألفون من قبيلتي الأوس والخزرج، على بقايا عداوة قديمة مستحكمة بينهم وتنافس شديد من آثار يوم بعاث.

**الفئة الثانية:** المهاجرون الذين وفدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، كانوا في البداية في حدود المائتين، ثم ازداد عددهم بفعل تتابع الهجرات، ودخول أقوام العرب في الإسلام.

**الفئة الثالثة:** المشركون من أهل المدينة، وهم فريقان: فريق من المشركين، تضررت مصالحهم بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، الذي علا نجمه إثر ما قام به من جهود الصلح يوم بعاث، وقد كان يخطط ليتوج ملكا على يثرب، فأجهض الإسلام أحلامه، ولم يتظاهر بالإسلام إلا بعد بدر، لما رأى أن مصلحته في إعلان إسلامه، خاصة بعد أن انفض عنه كثير من أصحابه، فبدأ من حينها فصلا جديدا من

---

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص55.

النفاق. والفريق الثاني من هذه الفئة، وهم المشركون من أهل المدينة، ممن لم يسلموا بعد، دون أن تكون لهم عداوة مع الإسلام، وهم تحديدا قبائل: بنو أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، فكانوا يطيعون شاعرهم وحكيمهم قيس بن الأسلت، فقعد بهم عن الإسلام حتى كان يوم الخندق سنة5هـ.

**الفئة الرابعة:** يهود المدينة، وقد شعروا بتراجع مكانتهم السياسية والثقافية، وتراجع دورهم الاقتصادي بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، فاستبطنوا العداوة إلى أن فضحهم الله تباعا، ويضم يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وقد تضايق قادة اليهود، أمثال حيي بن أخطب وأضرابه بشدة من مزاحمة المسلمين لهم بالمدينة، فامتلأت نفوسهم حقدا وأضمروا للإسلام شرا، بينما أسلم بعض اليهود ممن هداهم الله إلى الإسلام، وعلى رأسهم عبد الله بن سلام، وقد كان إسلامه حجة على اليهود، وهو ممن شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، لما رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال: ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام[1]، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين**﴾[2].

أما الوضع الاقتصادي فكان أهل يثرب أكثر شغلهم في الزراعة والرعي، ولهم موارد محترمة من ثمار النخيل، غير أن هذه الموارد لم تكن كافية لتسد حاجيات المجتمع المدني الجديد، لاسيما بعدما تعزز بالمهاجرين المكّيين، أما التجارة والأسواق فيهيمن عليها اليهود، وكانت المدينة بمثابة نقطة عبور أساسية للقوافل التجارية المترددة بين الشام واليمن.

## أسس بناء المجتمع الجديد:

يمكن إجمال هذه الأسس في ثلاثة: بناء المسجد، والمؤاخاة، والميثاق.

---

1 -صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه. واستشكل قول سعد رضي الله عنه: ((ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام))، فقد ثبت ذلك عنه صلى الله عليه وسلم في حق جمع من الصحابة، منهم العشرة المبشرون، وفيهم سعد بن أبي وقاص، ولعل سعدا يقصد أنه لم يسبق أحد من الصحابة عبد الله بن سلام للبشارة الصريحة بدخول الجنة، أما من بشروا لا حقا فهم كثر، والله أعلم، رضي الله عنهم أجمعين، وحشرنا معهم في زمرة المقربين.

2 -سورة الأحقاف: 10.

**1- بناء المسجد:** أول خطوة قام بها النبي صلى الله عليه وسلم هي بناء المسجد في مكان بروك الناقة، ويعود المكان الذي بركت فيه الناقة لغلامين يتيمين، فاشتراه منهما، وشارك عليه الصلاة والسلام في بنائه، فكان ينقل مع أصحابه الجريد والحجارة، ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة[1].

وكانت حيطان المسجد من اللبن والطين، وسقفه من جريد النخل، وعضادتاه من الحجارة، وأرضه فرشت بالرمال، وجعلت له ثلاثة أبواب، وكانت قبلته إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة شطر المسجد الحرام، وبنى المسلمون إلى جانب المسجد حُجرات بالحجر واللبن، وسقفت بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه صلى الله عليه وسلم[2].

ولم يكن المسجد مجرد مكان لأداء الشعار التعبدية، بل شكل رمزا للدولة الإسلامية، وشعارا للمجتمع الجديد، فكان بمثابة جامعة لتلقي تعاليم الإسلام، ومأوى اجتماعيا لمن لا مأوى له من فقراء المهاجرين، ومركزا للتعبئة العامة، وبرلمانا للتشاور في شؤون الدولة والمجتمع، واتخاذ القرارات المصيرية، ومحكمة للتقاضي وفض النزاعات.

وشرع الآذان في أوائل الهجرة فازداد تعلق المسلمين بالمسجد والحياة المسجدية، فكان المسجد في قلب التحولات الكبرى التي سيعرفها المجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة لاحقا، في أفق بناء حضارة مسجدية تبلغ الآفاق.

**2-المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:** قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا نصفهم من الأنصار ونصفهم من المهاجرين، آخى بينهم على المساواة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿**وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾[3]، رد التوارث دون عقد الأخوة[4].

---

1 -صحيح البخاري، كتاب: الرقائق باب: لا عيش إلا عيش الآخرة.

2 -ان القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص56.

3 -سورة الأحزاب: 6.

4 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج1 ص56.

وقد سرت معاني الأخوة فعلا بين الفريقين من الأنصار والمهاجرين، فكانوا يقتسمون الرغيف بينهم، ويوثر بعضهم بعضا، وقد سجل في ذلك الأنصار موقفا عظيما يدل على نبل أخلاقهم وصدقهم في نصرة هذا الدين، فقد ذكر البخاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فأراد أن يقاسمه ماله وعمد إلى إحدى زوجتيه يريد تطليقها ليتزوجها عبد الرحمن، فقال له عبد الرحمن، بارك الله لك في مالك وأهلك، ولكن دلني على السوق فدلوه على سوق بني قينقاع، فأصاب منه مالا حسنا[1].

كما قاسم الأنصار فقراء المهاجرين نخلهم، يكفونهم المؤنة ولهم نصف الثمرة، وكل هذا يدل على ما كان عليه الأنصار من كريم السجايا وجميل الخصال، تجسدت في حسن الحفاوة والإيثار لإخوانهم المهاجرين، ولذلك أثنى عليهم سبحانه من فوق سبع سماوات بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون**﴾[2].

وقد كان للمؤاخاة حكم جليلة، منها ما هو معنوي، يتمثل في توثيق عرى المحبة في الله، فالحب في الله والبغض في الله هو أوثق عرى الإيمان، وكذلك السعي لتذويب العصبية الجاهلية، والتفاخر بالأحساب والأنساب، ومنها ما هو مادي، بأن تكون المؤاخاة أداة لتحقيق التضامن والتكافل بين طرفي المجتمع الإسلامي: الأنصار والمهاجرين، فكانت المؤاخاة عقدا لازما تترتب عليه آثار مادية كالتوارث، وذلك استثناء من الأصل، اقتضته ظروف المرحلة، فلما استوت أوضاع المجتمع الإسلامي، واستعاد المهاجرون قدرا من التوازن الاجتماعي والاقتصادي، نسخ حكم التوارث، وصار خاصا بالأقارب وذوي الرحم.

**3- الميثاق وبناء المجتمع التعاقدي:** منذ بيعة العقبة برزت ملامح أساسية تؤكد أن طبيعة المجتمع الجديد ستكون تعاقدية، وهو ما تمثل في آلية البيعة، وكان غرضها الأساس هو ضمان الولاء الكامل للإسلام.

---

1 -صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار.

2 -سورة الحشر: 9.

أما الميثاق الذي كتبه الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين من قريش (المهاجرين) ويثرب (الأنصار)، فيهدف إلى تعزيز الوحدة السياسية للمجتمع الإسلامي، التي تعد أهم ركيزة لبناء الدولة، فكان الغرض إزالة الكثير من حزازات الجاهلية وأعرافها الفاسدة، التي جعلت العرب فوضى غير قادرين على الانتظام في أي شكل من أشكال الوحدة والتنظيم السياسي، يعيشون أشتاتا متنافرين تائهين في صحراء شاسعة.

ويهدف الميثاق كذلك إلى تنظيم العلاقة بين المسلمين واليهود، وكأننا إزاء دستور ينظم شؤون مجتمع متعدد الأعراق والأديان، ويمكن أن نقسم فصول هذا الميثاق إلى قسمين: أحدهما ينظم علاقة المسلمين فيما بينهم، والثاني: يتناول علاقة المسلمين باليهود.

أما القسم الأول، فنلخص أهم بنوده في الآتي[1]:

-المسلمون جميعهم أمة واحدة.

-مبدأ التضامن والمعاقلة في الديات تتولاه القبيلة والعشيرة.

-وحدة المسلمين فيما بينهم وتحالفهم في وجه كل أشكال الظلم والفساد مهما كان مصدره.

-حرمة دم المؤمن وعدم نصرة الكافر على المؤمن.

-إقرار الذمة والجوار لكل مسلم.

-إقرار مبدأ التناصر مع اليهود المعاهدين.

-عدم نصرة من يحارب الإسلام وعدم تأمين أموال قريش وأشخاصهم.

-استحقاق القوَد والقصاص على من قتل مؤمنا أو اعتدى عليه.

-تحديد مرجعية التحكيم لحسم الاختلاف والتنازع، وهو الرجوع إلى الله ورسوله.

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، بتصرف، ج1 ص502-503م.

أما القسم الثاني من الميثاق الذي ينظم علاقة المسلمين باليهود، فنلخص أهم بنوده في الآتي:

-حفاظ كل طرف على استقلاليته السياسية والاقتصادية في تدبير نفقاته وشؤونه.

-التحالف والتناصر بين أهل الصحيفة في القضايا العادلة وفي صد كل عدوان خارجي على المدينة.

-تحديد مرجعية الاحتكام عند حصول التنازع بين أهل الصحيفة وهو العودة إلى الله ورسوله.

-عدم نصرة أعداء الإسلام أو تأمين تجارتهم لاسيما قريش.

لقد أسست وثيقة المدينة لدولة حديثة بمقاييس عصرها، تقوم على أساس دستوري تعاقدي، تعترف بحق الاختلاف الديني، وتمنح اليهود استقلالية وحكما ذاتيا كاملا، وترسخ قيم الجوار والعيش المشترك، والتعاون والتآزر من أجل القيم الإنسانية العادلة، مما يجعلنا إزاء تحول تاريخي مشهود وقومة كبرى في الفكر والممارسة السياسية، تصالحت فيها القيم الأخلاقية والإنسانية مع الفعل السياسي، ما يجعل منه نموذجا قياسيا فريدا، ومثالا حيا لتجسد القيم الإنسانية، حقّ لكل مسلم أن يتشوف إليه ويأتسي به في كل زمان ومكان. وهناك أساس آخر سينضاف لاحقا إلى الأسس الثلاثة وهو تنظيم السوق وفق جملة من الضوابط والتشريعات والأخلاقيات الإسلامية، تتمثل في منع الربا والاحتكار والزجر على الغش والتدليس والاحتيال، والحث على الصدق والشفافية والسماحة في أعمال التجارة والبيع والشراء، وقد بدأت هيمنة المسلمين على سوق المدينة بعد إجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة.

# القسم الخامس:

# مرحلة الكفاح الدامي:

# من غزوة بدر إلى الأحزاب، الدعوة تدافع عن نفسها.

بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه واستقرارهم بالمدينة، لم تتوقف استفزازات المشركين وتهديداتهم، بل زادت الضغوط والمكائد التي انخرط فيها أطراف متعددون، منهم منافقو المدينة واليهود، وبعض القبائل العربية، والبدو الأعراب، فكان من اللازم على المسلمين مواجهة الخطر الاستراتيجي الذي تمثله قريش وحلفائها، والخطر الداخلي لليهود والمنافقين من شركاء الوطن، ومناوشات واستفزازات البدو الأعراب في محيط المدينة وجوارها.

استفزازات قريش:

لم تكد قريش تستفق من صدمة الهجرة، التي أفشلت خططهم الجهنمية في استئصال الدعوة الإسلامية، واغتيال النبي صلى الله عليه وسلم، حتى شرعوا في مواصلة تهديداتهم واستفزازاتهم للمسلمين، فبعثوا إليهم يهددونهم بالاستئصال، كما أرسلوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان سيدا للخزرج قبل الهجرة، وكان يطمح أن يتوج ملكا على يثرب، بعثوا إليه بكتاب يقولون فيه: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ولنخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نستبيح مقاتلكم ونستبيح نساءكم[1].» فخرج عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين يريدون قتال النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الأنصار، فردهم النبي صلى الله عليه وسلم برد جميل، مبينا لهم أن هذه من مكائد قريش لتفريق شمل أهل يثرب، وجعْلهم يسفكون دم بعضهم البعض[2].

**الصدّ عن البيت الحرام:** ومن ذلك ما أورده البخاري عن عبد الله بن مسعود، مِن صدِّ قريش لسعد بن معاذ الذي انطلق إلى مكة معتمرا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، ثم أراد الطواف فلقيه أبو جهل فمنعه[3].

**حراسة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم:** أخذ المسلمون تهديدات قريش مأخذ الجد، فكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يبيت إلا ساهرا أو في حراسة جمع من أصحابه، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة

1 -سنن أبي داود، كتاب: الخراج والإمارة والفيء، باب: خبر النضير.

2 -نفسه.

3 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من يقتل ببدر.

ليلة، فقال: ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: فبينما نحن كذلك، سمعنا خشخشة سلاح، فقال من هذا، قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نام[1].

وقد استمرت حراسة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿**وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[2]، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل))[3].

**الإذن بالقتال:** أنزل الله تعالى الإذن بالقتال دون الأمر به في قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير**﴾[4]، ويرجح أن يكون نزوله مرتبطا بهذه الظروف، وقد جاء الإذن بالقتال لحكمة أرشدت إليها الآيات القرآنية اللاحقة كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِوَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور**﴾[5].

## خطة المسلمين في مواجهة تهديدات المشركين:

عقد المسلمون معاهدات الحلف وعدم الاعتداء مع القبائل المجاورة، منها قبائل اليهود الثلاث، وجهينة، وبني ضمرة، وذلك قبل الشروع في عدد من النشاطات العسكرية التي كان يراد منها تأمين الطريق التجاري واعتراض تجارة قريش.

وتنقسم الأنشطة العسكرية التي باشرها المسلمون إلى سرايا وغزوات وبعوث:

-يطلق المؤرخون وعلماء السير (**الغزوة**) على النشاط العسكري الذي شهده النبي صلى الله عليه وسلم سواء حارب فيه أم لم يحارب.

---

1 -صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل سعد بن أبي وقاص، وباب: الحراسة في الغزو في سبيل الله.

2 -سورة المائدة: 67.

3 -جامع الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة.

4 -سورة الحج: 39.

5 -سورة الحج: 41.

-أما **(السرية)** فهي تكليف النبي صلى الله عليه وسلم أحد قادته، رفقة عدد من المقاتلتين، بإنجاز مهمة عسكرية محددة، ضد عدو محدد، دون أن يخرج فيها بنفسه.

-أما **(البعوث)** فهي أشبه بدوريات عسكرية، قد لا تستهدف عدوا محددا، بل يكون من أهدافها الاستعراض والاستطلاع والتمشيط.

## النشاطات العسكرية قبل غزوة بدر:

**1-سرية سيف البحر:** كانت في رمضان من السنة الأولى من الهجرة، شارك فيها ثلاثون رجلا من المهاجرين، يقودهم حمزة بن عبد المطلب، ولواء حمزة أول لواء يعقد في الإسلام، اعترضوا قافة لقريش تضم ثلاثمائة رجل على رأسهم أبو جهل، وقد حجز بينهم مجدي بن عمر الجهني، وكان حليفا للفريقين.

**2-سرية رابغ:** كانت في شوال من السنة الأولى من الهجرة، خرج عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكبا واعترضوا قافلة لأبي سفيان تضم مائتي راكب، وحصل بينهم ترام بالنبال دون أن يحصل قتال مباشر.

3-**سرية الخرار:** حصلت بموضع قرب الجحفة، في ذي القعدة من السنة الأولى من الهجرة، خرج سعد بن أبي وقاص وقد عقد له لواء أبيض في عشرين راكبا، يطلبون عيرا لأبي سفيان فلم يدركوها.

**4-غزوة الأبواء أوودّان:** وهما موضعان بين مكة والمدينة قرب رابغ، خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الثانية من الهجرة، في سبعين رجلا يعترض عيرا لقريش، فلم تحصل مواجهة، وكانت هذه أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم، وعقد فيها لواء أبيض لحمزة بن عبد المطلب، وقد غاب فيها عن المدينة خمس عشرة ليلة.

**5-غزوة بواط:** كانت في ربيع الأول سنة 2هـ، خرج النبي صلى الله عليه وسلم في مائتي راكب، يطلب عيرا لقريش عليها أمية بن خلف الجمحي فلم يلق كيدا.

**6-غزوة سفوان:** في ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة، بعدما أغار زمرة من المشركين فيهم كرز بن جابر الفهري على مراعي المدينة، ونهبوا بعض المواشي، فخرج النبي

صلى الله عليه وسلم يطلبهم في سبعين راكبا، حتى وصل وادي سفوان من ناحية بدر، فلم يدركهم، وتسمى أيضا ببدر الأولى أو الصغرى.

7-**غزوة ذي العشيرة:** خرج النبي صلى الله عليه وسلم في مائتين من المهاجرين يطلب عيرا لقريش فيها أبو سفيان، فلما بلغ ذو العشيرة، وهو مكان بينبع، فاتته العير ورجعت إلى الشام، وكانت هي السبب في غزوة بدر الكبرى.

8-**سرية نخلة:** كانت في رجب من السنة الثانية، خرج عبد الله بن جحش في اثني عشر رجلا، ليبلو أخبار قافلة لقريش تمرّ بين مكة والطائف دون مقاتلتهم، فلما رأوهم، ترددوا في مقاتلتهم خشية انتهاك الشهر الحرام، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا اثنين من المشركين، واستشهد أول قتيل من المسلمين، واستاقوا عيرا لقريش، فأنكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأوقف التصرف في العير والأسيرين، وأكثَرَ المشركون من القيل والقال بخصوص انتهاك حرمة الشهر الحرام للنيل من سمعة الإسلام، فنزل القرآن يردّ عليهم بأن ما اقترفوه في حق المسلمين من ظلم أكبر من ذلك: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ**﴾[1].

وقد أطلق النبي صلى الله عليه وسلم الأسيرين وأدّى دية القتيل إلى أوليائه[2].

## مميزات النشاط العسكري قبل بدر:

كان أغلب المشاركين في هذه الغزوات والسرايا من المهاجرين، ولم يلزم النبي صلى الله عليه وسلم أحدا بالخروج لأنه لم يفرض الجهاد بعد، وإنما كان مجرد إذن بالقتال، وبعد سرية عبد الله بن جحش في شعبان سنة 2هـ أُمر المسلمون بالقتال في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[3].

---

1 -سورة البقرة: 215.

2 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1 ص561-605، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص73-75، والمنصور فوري، رحمة للعالمين، م س، ج1 ص115-216، والمباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص141-144.

3 -سورة البقرة: 190.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستأمر على المدينة بعض أصحابه، في غزواته الثلاث التي خرج فيها.

ولم ينشب قتال مباشر في معظم هذه العمليات العسكرية، إذ الغرض منها هو بث الرعب في نفوس قريش وتهديدهم في تجارتهم إلى الشام، ولم يتم استهداف الأموال والأشخاص إلا بعد نهب كرز بن جابر الفهري لمواشي المدينة.

وقد عرفت هذه الفترة حدث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة البلد الحرام، وكأنه توجيه للمسلمين بضرورة العمل ومضاعفة الجهد لتخليص قبلتهم (مكة) من أيدي المشركين، فإنه لا يستقيم أن يطيب لهم العيش وقبلتهم التي يتجهون إليها في صلاتهم بيد أعدائهم، وقد وجد في ذلك المنافقون واليهود مادة دسمة للنيل من الإسلام، وبث الشبهات فأجابهم القرآن جوابا شافيا في سورة البقرة: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1].

## غزوة بدر الكبرى[2]:

تعد غزوة بدر الكبرى امتدادا لغزوة ذي العشيرة، وقد مضى إفلات أبي سفيان بالعير نحو الشام، فلما قرب موعد عودتها إلى مكة، أتى الخبر للنبي صلى الله عليه وسلم من العيون التي بثها للاستطلاع، وكانت القافلة تضم أموالا طائلة: نحو ألف بعير محملة بالأموال، بما مقداره خمسون ألف دينار.

فندب الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للخروج إليها دون إلزامهم بذلك، لأن القصد كان هو اعتراض العير، وليس الدخول في مواجهة كبرى مع قريش تتطلب استعدادا وتأهبا أكبر، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ولم يكن معهم سوى فرسين، أحدهما للزبير بن العوام، والثاني للمقداد بن الأسود، وسبعين بعيرا يعتقبونها.

1 -سورة البقرة: 143.

2 -سيتم إيراد أحداث غزوة بدر ملخصة من المصادر الآتية: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص250 فما بعدها، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج3 ص153 وما بعدها، والمباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص146 وما بعدها.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وأبا لبابة بن عبد المنذر، وعقد لواء أبيض لمصعب بن عمير، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم في 8 أو 13 من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

وعلم أبو سفيان بخروج النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى قريش يطلب النفير لنجدة عيرهم، فتجهزت قريش للحاق بأبي سفيان، ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب، أرسل بدلا عنه، وحشدوا مَن حولهم من القبائل، ولم يتخلف غير بني عدي، وكان قوام جيشهم ألفا وثلاثمائة مقاتل، معهم مائة فرس وستمائة درع وإبل كثيرة، يقودهم أبو جهل.

وقد خرجوا سراعا حتى إذا كانوا بالجحفة، أرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه أفلت بعيره بعدما سلك طريق الساحل، ويطلب إليهم الرجوع، فهمّ الناس بالرجوع لولا أن طاغية قريش أبو جهل حملهم على الاستمرار لمواجهة المسلمين، فقال: والله لا نرجع حتى نرِد بدرا، فنقيم به ثلاثا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا، ومع ذلك فقد رجع الأخنس بن شريق، وبنو زهرة، وكانوا ثلاثمائة رجل، وأرادت بنو هاشم الرجوع فصرفهم عن ذلك أبو جهل، فبقي في جيش قريش ألف مقاتل، نزلوا قريبا من بدر.

وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسيره بوادي دفران، فأدرك أنه لا سبيل لاجتناب المواجهة الدامية مع قريش، وأن المواجهة حتم لازم.

فعقد النبي صلى الله عليه وسلم مجلسا للشورى للتداول في الأمر، وإطلاع الصحابة على حقيقة الوضع، فخاف بعضهم -من عامة الجيش- اللقاء من غير تأهب لائق، لكن القادة الثلاثة من المهاجرين أبوبكر وعمر والمقداد استنهضوا الهمم، معبرين عن استعدادهم للمواجهة، فكان مما قاله المقداد: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى بن عمران: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيرا، ودعا له.

ثم تكلم قائد الأنصار سعد بن معاذ، فقال: امض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسرّ النبي صلى الله عليه وسلم بقول سعد ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل بدرا، وقد وصلته أخبار قريش وخروج أشرافها، فقال: هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ أكبادها.

وقد سبق المسلمون إلى اختيار موقع التمركز قرب ماء بدر، فاختاروا موقعا استراتيجيا بمشورة الحباب بن المنذر، وأعدوا مقرا للقيادة النبوية، فبنوا عريشا للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بمشورة سعد بن معاذ.

وأنزل الله عليهم مطرا طهّر به قلوبهم، وأذهب عنهم الرجز، وأكرمهم بغشيان النعاس لهم كما في قوله تعالى: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَام**﴾[1].

وبات النبي صلى الله عليه وسلم ليلته يجأر إلى الله بالصلاة والدعاء، وذلك بعدما عبأ الجيش، وشحذ الهمم، وبشرهم بالنصر على عدوهم.

أما معسكر قريش فقد دبّت الفرقة في أوصاله، فرأى فريق منهم أنه لا حاجة لهذه الحرب اللعينة التي ستقطع الأوصال والأرحام، وجهروا بذلك في وجه أبي جهل، وعلى رأسهم حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة، فعرّض بهم أبو جهل ورماهم بالجبن، وأقنع الناس بضرورة المواجهة.

## المواجهة الحاسمة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي، قتله حمزة وهو يهم بالشرب من الحوض متحديا المسلمين، ثم خرج ثلاثة من فرسان قريش، وهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة

1 -سورة الأنفال: 11.

والوليد بن عتبة، فبرز إليهم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي، فقتلوهم جميعا، وأصيب عبيدة إصابة بليغة مات بعدها ببضعة أيام.

وكانت بداية محفزة للمسلمين لمواصلة القتال، بينما استغرق النبي في الدعاء والمناجاة لربه بأن ينصره، فأنزل الله تعالى مددا من السماء، ملائكة مسومين يثبتون المؤمنين، ويلقون الرعب في نفوس المشركين، فكان الكفار تضرب رقابهم ولا يعلمون من أصابها. وهاجم المسلمون عدوهم وحملوا عليهم حملة نكراء بعدما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم: ((والذي نفسي بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»، ثم قال: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض))، فأخرج العمير بن الحمام تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[1].

وانطلق الصحابة يتسابقون من أجل الشهادة، فانكشف المشركون، وتصدعت صفوفهم، رغم محاولات طاغيتهم أبي جهل تثبيتهم وبث الحماسة فيهم، وأثخنهم المسلمون بالضرب والقتل، فبدأوا يولون الأدبار، ويفرون هاربين من أرض المعركة، فلحقوا بهم، وأسروا منهم الكثير، أما طاغيتهم أبو جهل فقد اشترك في قتله ثلاثة صحابة: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء، ثم أجهز عليه عبد الله بن مسعود وبه رمق، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة، وقتل أميةَ بن خلف جمعٌ من الصحابة فيهم بلال.

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل رجال من بني هاشم خرجوا مستكرهين، فيهم العباس عم رسول الله، وكذلك أبوالبحتري بن هشام، لأنه كان يكف الناس عن رسول الله بمكة، وقد مضى الحديث عن عمله في شق الصحيفة، لكنه قتل يوم بدر.

وسطر المسلمون مشاهد رائعة من التضحية في سبيل الله، فتجلت روائع الإيمان في أجمل الصور وأبهى المشاهد، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لقريش، ونصر مؤزر للمسلمين،

---

1 -صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد.

فاستشهد من الصحابة أربعة عشر رجلا: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من الكفار سبعون، وأسر منهم سبعون من القادة والصناديد، وألقيت جثثهم في القليب.

وصل قريش خبر الهزيمة فارتجت له أنحاؤها، وتوشحت بالحزن والسواد أرجاؤها، أما المدينة فقد عمها الفرح والسرور، وتداعت بالحبور.

ونزل الوحي يبين قسمة الغنائم، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الخمس، ليعيد توزيعه في مساعي الخير وأوجه الصلة والبر، ووزع باقي الغنائم على المقاتلين، وقدمت الوفود للتهنئة بالنصر المبين.

## قضية الأسرى:

لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم من الأسرى غير النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، وكانا من أشد قريش إيذاء للنبي وأصحابه بمكة، أما بقية الأسرى فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فيهم، فكان رأي الصديق افتداءهم ليكون ما أخذ منهم قوة للمسلمين، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، ورأى عمر أن تضرب رقابهم، لأنهم قادة الكفر وأئمته، فمال النبي صلى الله عليه وسلم لرأي الصديق، وأخذ منهم الفداء، وكان الفداء ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، كل حسب غناه وملاءته، ومن لا مال له كان فداؤه عشرة غلمان من أهل المدينة يعلمهم الكتابة، ومنّ النبي صلى الله عليه وسلم على عدد من الأسرى مطلقا سراحهم من غير فدية، منهم: المطلب بن حنطب، وأبوعزة الحنطي، وصيفي بن أبي رفاعة، وختنه أبو العاصي لقيط بن الربيع، بشرط أن يخلي سبيل ابنته زينب رضي الله عنها.

فنزل القرآن معاتبا له عن ذلك في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيم * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيم**﴾[1]، والكتاب الذي سبق من الله هو قوله سبحانه: ﴿**فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾[2].

1 -سورة الأنفال: 68-69.

2 -سورة محمد: 4.

وقد نزلت سورة الأنفال معالجة لموضوع المعركة مزودة المسلمين بتوجيهات إيمانية، ومبينة لهم المقاصد السامية والأغراض النبيلة من خوض هذا التدافع والجهاد ضد الأعداء، كما نظمت شؤون الغنائم، وبينت كيفية قسمتها وتوزيعها، وفي هذا السياق من السنة الثانية فرضت على المسلمين فريضة الصيام وزكاة الفطر، فكان أول عيد يحتفلون به، هو الذي جاء عقب النصر المبين في غزوة بدر، ولذلك امتن الله عليهم بقوله: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون**﴾[1].

لقد جسدت غزوة بدر جملة من القيم الإيمانية والدروس والعبر، تجلت في الآتي:

-رفعة آصرة الإيمان والعقيدة وأولويتها على سائر الوشائج الأخرى، كما تجلى ذلك في مواجهة الرجل لأخيه وذوي قرابته في أرض المعركة.

-التفريق بين الوحي الثابت والاجتهاد والرأي المظنون، وتمثل ذلك في سؤال الحباب بن المنذر للنبي صلى الله عليه وسلم عن مكان المعسكر: أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا ألا نتقدم عنه أونتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ ثم اقترح عليه الموقع الأنسب لخوض المعركة الذي يمنحهم التفوق الاستراتيجي قرب ماء بدر، فيشرب المسلمون ولا يشرب الكفار.

-الالتزام بأخلاقيات الحرب، تمثلت في عدة مشاهد منها استنكار النبي صلى الله عليه وسلم ما أقدم عليه بعض الصحابة من انتزاع معلومات من غلامين من قريش تحت التهديد والضرب الموجع، وكانوا احتجزوهما قبل بدء المعركة، فعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وقال: إن صدَقاكم ضربتموهما وإن كذَباكم تركتموهما.

-إبراز قيم التحضر الإسلامي وإعلاء شأن العلم والتعلم: وتمثلت في افتداء عدد من أسرى بدر مقابل تعليم كل واحد منهم لعشرة غلمان من الأنصار، وكانت قريش تهتم بالكتابة، والمدينة أقل اهتماما بذلك على شاكلة المجتمعات الزراعية قديما.

---

1 -سورة الأنفال: 26.

## النشاط العسكري قبل أحد:

أفرز انتصار بدر واقعا جديدا في محيط المدينة، فازداد حنق قريش وحقدها على المسلمين من جراء هزيمة بدر المدوية، واشتد غيظ اليهود وأحسوا بتعاظم قوة المسلمين، وتزايد الخطر الإسلامي، فبدأ بعضهم يجاهر بالعداوة.

أما المنافقون بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول، فلم يجدوا بدا من تغيير استراتيجيتهم، فأظهروا الإسلام وتماهوا مع المسلمين، وأبطنوا الكفر والضغينة لهم.

بينما تزايد خوف القبائل العربية الموجودة في محيط المدينة، من تشكل دولة قوية ذات سلطان سياسي وعسكري، تنهي ما يكسبونه من حياة الفوضى والنهب وقطع الطريق، وتحد من صولاتهم وجولاتهم في فيافي الصحراء، وهم القائلون على لسان شاعرهم عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

فكيف عالج النبي صلى الله عليه وسلم هذا الواقع الجديد؟

لم يطمئن المسلمون لانتصار بدر ويستكينوا لنتائجه، بل إن القيادة النبوية وظفت انتصار بدر لبعث مزيد من الثقة والطمأنينة لدى المسلمين، ورفعت من حالة التأهب التي يفرضها الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية، ضمن محيط عربي مضطرب، لا يتورع عن المجاهرة بالعداء، ورفض أي تغيير في توازنات القوة بين القبائل بالحجاز وجزيرة العرب، فكانت مجموعة من الوقائع والنشاطات العسكرية، كالآتي:

1-غزوة بني سليم: وهم من بطون غطفان، كانوا يستعدون لمهاجمة المدينة، فباغتهم النبي صلى الله عليه وسلم في ديارهم، فتركوا منازلهم وفروا هاربين إلى الوادي، وغنم المسلمون منهم خمسمائة بعير.

2-فشل محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم من قبل عمير بن وهب، وكان قد اتفق مع صفوان بن أمية على ذلك، فلما وقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بذلك، فعلم أن الخبر جاءه من السماء، فأسلم، وأطلق النبي سراح ابنه وهب[1].

3-غزوة بني قينقاع:

كان بنو قينقاع يسكنون وسط المدينة، وهم أقرب اليهود مسكنا من المسلمين، وكان سوقهم مزدهرا، فيهم صاغة وحدادون، يصنعون الأواني وآلات الحرب، ولديهم أكثر من سبعمائة مقاتل، وهم أشجع يهود المدينة، وقد تزايدت استفزازاتهم ومجاهرتهم بالعداء للمسلمين، فكانوا أول أحياء اليهود نقضا للعهد، ومما ارتكبوه من عدوان في حق المسلمين:

-إرسال شاس بن قيس اليهودي غلاما له ليتكلم بمآثر يوم بعاث أمام جمع من الأوس والخزرج، فأوقد نار الحمية فيهم، وكادت تنشب الحرب بينهم لولا حكمة النبي صلى الله عليه وسلم وتدخله في الوقت المناسب.

-التحرش بمن دخل سوقهم من المسلمين رجالا ونساء، فجمعهم النبي صلى الله عليه وسلم ووعظهم فلم يزدهم ذلك إلا غضرسة.

-وكان السبب المباشر لغزوة بني قينقاع ومحاصرتهم ثم إجلائهم عن المدينة، هو تآمرهم على امرأة مسلمة كشفوا عورتها أمام الملأ، فثار لها رجل مسلم فقتلوه، فحوصروا خمس عشرة ليلة، وأصر عبد الله بن أبي بن سلول على عدم قتلهم والعفو عنهم، فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة، فهلك أكثرهم في طريق الشام[2].

4-غزوة السويق: خرج أبوسفيان في مائتي راكب يريد الثأر وأغار على أطراف المدينة، فقتل راعيين وأحرق وقطع النخل، وحملوا أحمالا من السويق، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يطلبهم ففروا وقد ألقوا السويق تخففا، فسميت بغزوة السويق[3].

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج1، ص661-663.

2 -نفسه، ج2 ص47-48.

3 -نفسه، ج2 ص44-45.

5-غزوة ذي أمر: سببها ما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم من تأهب بني ثعلبة ومحارب لغزو المدينة، فبادرهم في مائة وخمسين راكبا، فلما وصلوا ذي أمر فرّ الأعداء وتفرقوا، فأقام النبي بذي قار شهر صفر من سنة 3 هـ مما أثار الرعب في نفوس الأعداء[1].

6-البعث إلى طاغية اليهود كعب بن الأشرف: وهو من قبيلة طيء، وأمه يهودية من بني النضير، وكان شديد العداوة للمسلمين، ينظم الشعر في هجاء النبي وأصحابه، والتشبيب بنساء المسلمين، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة وبعض الصحابة، فقصدوه في حصنه فقتلوه، مما أثار الرعب في نفوس اليهود بمقتل طاغيتهم[2].

7-غزوة بحران: وهي دورية كبيرة ببحران بالحجاز من ناحية فرع، ضمت ثلاثمائة مقاتل، قام بها النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى من السنة الثالثة، يريد ترويع قريش وبعض القبائل المعادية، ولم يحدث قتال[3].

8-سرية زيد بن حارثة: كانت في جمادى الآخرة من السنة 3 من الهجرة، وهي أنجح عملية عسكرية قام بها المسلمون في هذه المرحلة، حيث بلغ المسلمين أن قريشا سلكت في تجارتها للشام طريق العراق، فأغاروا عليها في مائة راكب، واستولوا على عيرها وبضائعها، وكانت غنيمة كبيرة، وضربة قاسمة للمشركين ولتجارتهم، مما جعل قريشا تزداد حنقا وغيظا[4].

## غزوة أحد: قريش تتجهز للثأر[5]:

منذ هزيمة بدر لم تتوقف قريش عن الاستعداد لمعركة الثأر ضد المسلمين، فمنعوا من البكاء على قتلاهم، وكانت نتائج بدر قد أسفرت عن بروز قيادة جديدة من شباب مكة، بعد فاجعتهم في أسيادهم وشيوخهم الذين سقطوا صرعى على بساط بدر، وكانت هذه القيادة

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص91.

2 - ابن عبد البر أبو عمر النمري، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1386هـ/1966م، ص149 وما بعدها.

3 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص50-51.

4 -نفسه، ج2 ص51.

5 -تم تلخيص وقائعها من: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص63 وما بعدها، وابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، م س، ص153 وما بعدها، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج3 ص173 وما بعدها، والمباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص176 وما بعدها، وصحيح البخاري، كتاب: الجهاد.

الجديدة في غاية الحماس والاستعجال للثأر لآبائهم وأسيادهم، فيهم: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبي ربيعة.

وقد مولت قريش معركتها من أموال العير التي نجا بها أبو سفيان قبل بدر، وجيشوا من الأحابيش ومن قبائل كنانة وتهامة.

وقام شعراؤهم بتحريض القبائل، ومنهم مسافح بن عبد مناف الجمحي، وأبو عزة الشاعر الذي أطلقه النبي صلى الله عليه من الأسر، مقابل وقف تحريضه ضد المسلمين فأضمر الغدر.

خرجت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل، يقودهم أبو سفيان، ومعه خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، وبعث العباس إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأخبار قريش واستعداداتها للحرب.

وعقد النبي صلى الله عليه وسلم مجلسا للتشاور مع أصحابه، فتداولوا رأيين: الأول: ألا يخرجوا من المدينة، فإن دخلها المشركون قاتلوهم فيها، وكان هذا رأي النبي صلى الله عليه وسلم، ووافقه ابن أبي ابن سلول، لا متابعة للنبي بل لأنه يسهل عليه الاختباء من العدو.

الثاني: أن يخرجوا إليهم حتى لا تظن قريش أنهم جبنوا عنهم، وبه قال حمزة بن عبد المطلب وجماعة من الصحابة ممن لم يشهدوا بدرا، وألحوا في ذلك، فأنفد الرسول صلى الله عليه وسلم رأي الأغلبية، وعزم على الخروج للقاء العدو، فتكلم بعض الأنصار منهم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وكأنهم ندموا على أنهم استكرهوا رسول الله في الخروج، فأرادوا ردّ الأمر إليه، فلما خرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم لابسا درعه، متوشحا سلاحه، فكلموه في ذلك، فقال: ما ينبغي لنبيء إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

وتم تنظيم الجيش إلى ثلاث كتائب: كتيبة المهاجرين، ويحمل لواءها مصعب بن عمير، وكتيبة الأوس: ويحمل لواءها أسيد بن حضير. وكتيبة الخزرج: ويحمل لواءها الحباب بن المنذر. وكان الجيش يتكون في بداية المسير من ألف مقاتل، لهم مائة درع وخمسون فارسا، فلما وصلوا أرض المعركة وتراءى لهم العدو، انخزل عبد الله بن أبي بن سلول عن الجيش بثلاثمئة من أصحابه، متعللا بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ بمشورته وأخذ بمشورة من هم دونه، والحقيقة أنه أراد بذلك توهين المسلمين أمام عدوهم، إذ لو كان السبب هو

موقفه من مخرجات الشورى لما برز أصلا إلى أرض المعركة، فشاء الله أن يفتضح أمره، وتنكشف حقيقته أمام الأنصار، ومن كان يكن له بقية احترام من الخزرج.

وكاد حيّان من الأنصار أن يلحقوا بالمنافقين في تمردهم، وهم بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، لولا أن ثبتهم الله، قال تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون**﴾[1].

ولم تفلح محاولات قريش تشتيت صفوف المسلمين، لما وجه أبو سفيان نداءه للأنصار بأن يخلوا بينهم وبين ابن عمهم فلا حاجة لهم بقتالهم، وفشلت كذلك محاولات أبي عامر الراهب -وسماه المسلمون الفاسق- وكان سيدا مطاعا في الأوس، فلما دخل الإسلام المدينة جاهر بعداوة النبي صلى الله عليه وسلم، وخرج إلى قريش يحرضهم ضد الإسلام، فنادى على الأوس يوم أحد يطلب إليهم مغادرة صفوف المسلمين، فأجابوه بما يكره.

ورفض النبي صلى الله عليه وسلم مشاركة كتيبة من اليهود حسنة التسليح في القتال، معللا ذلك بأنه: لا نستعين على أهل الشرك بأهل الكفر.

كما رفض مشاركة الصبيان ممن لا يطيقون القتال، ومنهم: عبد الله بن عمر، وزيد بن الأرقم، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وأسامة بن زيد، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة الأنصاري، وأجاز النبي صلى الله عليه وسلم من كان ماهرا بالسلاح، ومنهم البراء بن عازب، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج.

وارتكزت الاستراتيجية الحربية للنبي صلى الله عليه وسلم على حسن اختيار الموقع، وحسن تنظيم الجيش، فوضع الرماة على الجبل لحماية ظهور المسلمين، ونهاهم عن مغادرة مواقعهم مهما كانت نتيجة المعركة، وقسم الجيش إلى ميمنة وضع عليها المنذر بن عمرو، وميسرة وضع عليها الزبير بن العوام.

## حضور المرأة في أحد:

وكان للمرأة حضور لافت في المعركة، حيث أحضرت قريش معهم النسوة، ليتولين مهمة تحميس الجيش، ومنعهم من الفرار، تقودهن هند بنت عتبة، جاءت تنشد الثأر لأبيها

1 -سورة آل عمران: 122.

وأخيها وعمها، الذين قتلوا يوم بدر، وقد تمكن منها أبو دجانة فاتقى أن يقتلها بسيف النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أخده بعد أن قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: من يأخذ مني هذا السيف بحقه، فأخذه أبو دجانة.

كما كان للمرأة المؤمنة حضور مشهود في أحد، تجلى في شجاعة بعض الصحابيات واستبسالهن، وعلى رأسهن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، فقد قاتلت ببسالة ودافعت عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصابها اثنا عشر جرحا.

وكذلك أم المؤمنين عائشة، وأم سليم، وأم أيمن، وأم سليط رضي الله عنهن، بذلن جهدا كبيرا في هذه المعركة، فكنّ يحملن قرَب الماء يسقين المقاتلين، وأم أيمن تحثو التراب على وجوه من رجع عن القتال، وكانت فاطمة الزهراء رضي الله عنها تغسل الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصابه المشركون في وجنتيه، وأوقفت نزيف الجرح بقطعة حصير أحرقتها وألصقتها به فاستمسك الدم.

## أحداث المعركة:

لما انطلقت المعركة كان أول وقودها طلحة العبدري، تداعى للمبارزة فأحجم الناس عنه لفرط شجاعته، فبرز إليه الزبير ووثب عليه وذبحه ذبح الشاة، فكبر المسلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن لكل نبيء حواريا وحواريي الزبير.

وحمل المسلمون على حملة لواء قريش وكانوا جميعا من بني عبد الدار، فقتل عشرة منهم، ثم حمله غلام حبشي من مواليهم فقتل، فسقط لواء قريش، ولم يبق داري واحد يحمل اللواء.

واستبسل جماعة من أصحاب النبي في هذه المعركة، فكانوا نجومها وأبطالها من غير منازع، فيهم حمزة بن عبد المطلب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وأبو دجانة، وعلي بن أبي طالب.

ولم يلبث المشركون أن انهزموا ولاذوا بالفرار، لولا خطأ استراتيجي تمثل في مخالفة الرماة لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، ونزولهم من الجبل يتبعون أثر المشركين، ويحصلون حظهم من الغنائم، فكان لذلك أثر في تحول مسار المعركة وتكبيد المسلمين خسائر كبيرة في

الأرواح. ورأى خالد بن الوليد، بحس القائد العسكري المحنك، تلك الثغرة الكبيرة التي تركها الرماة في أعلى الجبل، فاستغل الموقف، وانتهز الفرصة السانحة، وأعاد الكرة مع كتيبة من جنوده، فقام بتنفيذ خطة التطويق من خلال وصوله لمؤخرة الجيش الإسلامي، والإجهاز على من تبقى من الرماة على الجبل، وشن هجوما عنيفا على ظهور المسلمين، فأربك صفوفهم، حتى وقعت الفتنة فقاتل بعضهم بعضا، لعدم تمييزهم بين المسلمين وبين الكفار.

وانكشف الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولاذ بعضهم بالفرار، فبقي النبي صلى الله عليه وسلم ثابتا صامدا في أرض المعركة، وخلص إليه جمع من المشركين يرمونه بالنبال، فسطر جماعة من الصحابة مشاهد رائعة في افتداء النبي الكريم والذود عنه، وعلى رأسهم أم عمارة.

وراجت دعوى مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فافتتن الناس بذلك، وخارت عزائم بعضهم، فظهرت عزيمة عصابة من الصحابة في القتال، منهم: أنس بن النضر، وسعد بن معاذ، وثابت بن الدحداح، وحنظلة بن أبي عامر، وجميعهم استشهدوا في أحد.

وكان أنس بن النضر لقي جماعة ممن فروا من المعركة، يريدون لقاء ابن أبي بن سلول، حتى يطلب لهم الأمان من أبي سفيان، فسخر منهم، وقال: ما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات رسول الله، ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يريد المسلمين)، ومما صنع أولئك (يريد المشركين)، ثم انطلق فقاتل حتى قتل.

أما مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، فلما سمع دعوى مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقول: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، فضربه ابن قمئة ضربة قطعت منها ذراعه، فأخذ اللواء بالأخرى، فضربه حتى قطعت، فأكب عليها بعنقه فضربه ثالثة فاستشهد رضي الله عنه وهو يردد تلك الكلمات، فنزل القرآن موافقا ومتمما لها: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِين**﴾[1].

1 -آل عمران: 144.

واستشهد حمزة رضي الله عنه بعد قتال بطولي باسل، إثر طعنه غادرة بحربة عبد حبشي اسمه وحشي، وهو غلام لجبير بن مطعم، بعدما ظل يترصد له، وكان قتله لحمزة ثمن حريته، وأسلم وحشي بعد معركة الطائف، وشارك في حروب الردة، وقتل مسيلمة الكذاب بحربته التي أصاب بها حمزة، فكان يعد هذه بتلك، كما شهد موقعة اليرموك ضد الروم.

## اللحظة الحرجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

نادى النبي صلى الله عليه وسلم في الناس بعدما انكشفوا عنه: إلي عباد الله، فانقسم المسلمون ممن ثبتوا في أرض المعركة إلى فريقين: أحدهما، ثاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لحمايته من الكفار. وثانيهما، انطلق يشق صفوف الكفار.

ولما سمع الكفار نداء النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين، أسرعوا إليه وأحاطوا به منفردين به، وليس معه سوى تسعة نفر من المسلمين: سبعة من الأنصار واثنين من المهاجرين، وقد قاتلوا عنه حتى أثخنتهم الجراح، فاستشهد الأنصاريون السبعة، وبقي المهاجران، وهما: طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، يقاتلان في استبسال منقطع النضير دفاعا عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وكانت لحظة حرجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لولا العصمة الإلهية وحفظ الله تعالى لنبيه، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجارة فكلَمه في شفته السفلى، وأصيبت رباعيته اليمنى والسفلى، وسال الدم الزكي على وجهه الشريف، وشجّه في جبهته عبد الله بن شهاب الزهري، وضربه ابن قمئة على عاتقه ضربة شديدة بالسيف دون أن تنفذ من الدرع، وضربه ضربة أخرى عنيفة على وجنته، شكا منهما شهرا[1]، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيما أخرجه البخاري: كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله، وفي صحيح مسلم أنه كان يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2]، أما ابن قمئة فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقمأك الله، فاستجاب الله لدعائه، فقد روى الطبراني أن الله سلط عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة[3]، وروى ابن عائد أن

1 -المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص190.

2 -صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد.

3 - ابن حجر، فتح الباري، م س، ج7 ص366.

ابن قمئة انصرف إلى أهله، فخرج في غنمه فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع[1].

وقد كان غرض المشركين هو القضاء على حياة النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينهوا أمر الإسلام، لكن مِن حفْظ الله تعالى لنبيه، أن قيد له رجالا شجعانا يقاتلون دونه، أمثال الزبير وطلحة، فقاتلا ببسالة ومنعا المشركين من الخلوص إليه صلى الله عليه وسلم، وكانا راميين ماهرين، وقد قاتل طلحة حتى شلت يده، وكان إذا ذكر يوم أحد لأبي بكر يقول ذاك يوم طلحة[2].

وقد روى مسلم عن سعد أن الله أرسل ملكين يقاتلان عنه، وأنهما جبريل وميكائيل[3]، كما ذكر صاحب زاد المعاد قصصا لمشركين عقدوا العزم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، منهم عبد الله بن شهاب الزهري، فأخذ الله أبصارهم عنه، فلما خلصوا إليه عرفوا أنه منهم ممنوع[4].

وقد حدث ذلك في لحظات خاطفة سريعة، على غفلة من أكابر الصحابة الذين كانوا في مقدمة الجيش، فما إن سمعوا بما يحدث للنبي صلى الله عليه وسلم في مؤخرة الجيش حتى هبوا مسرعين، فتجمعوا حوله، وقد لحقه ما لحقه من جراحات وأذى من المشركين، ثم وقع الانسحاب المنظم ناحية شعب بالجبل، لإعادة تنظيم الصفوف ورصها وتضميد الجراح، فشن المشركون هجوما أخيرا على المسلمين من أعلى الجبل يقودهم أبو سفيان وخالد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاد عمر رضي الله عنه رهطا من الصحابة وقاتلوا المشركين حتى صدوهم وأهبطوهم عن الجبل[5].

وقد مثل الكفار بجثث الشهداء من المسلمين، ومنهم سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، وقد عزم النبي على التمثيل بالكفار، فنهاه ربه عن ذلك، انتصارا للقيم الإنسانية ومكارم الأخلاق، وقد تجلت في هذه الغزوة جملة من الأمور العجيبة، منها:

---

1 - نفسه، ج7 ص377.

2 -نفسه، ج7 ص 361.

3 -صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى اله عليه وسلم يوم أحد.

4 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص97.

5 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص86.

-الأصيرم بن عمرو بن ثابت الذي استشهد يوم أحد ولم يصل لله صلاة واحدة، وكان قد تأخر إسلامه ولم يسلم إلا يوم أحد،[1] فكان ذلك من حسن الختام، وقزمان المنافق الذي قاتل حتى أثبتته الجراح، فبشره المسلمون خيرا، فقال: إنما قاتلت على أحساب قومي، فلما اشتد به الألم نحر نفسه، فإذا ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قال: إنه من أهل النار[2]، وكذلك مخيريق اليهودي الذي قاتل مع المسلمين، فقال فيه عليه الصلاة والسلام: مخيريق خير يهود[3]، فلم يمنعه اختلاف الدين من الإقرار بفضله وخيريته على بني قومه، وصدق ربنا سبحانه إذ يقول: ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[4].

-حنظلة بن أبي عامر الذي ترك عروسه في ليلة الزفاف، ولبى نداء الجهاد، وكاد أن يفتك بأبي سفيان لولا أن عاجله شداد بن الأسود فقتله، فسبحان من جعل حنظلة يموت شهيدا ليزف إلى جنات الخلد، دفاعا عن الإسلام، وعن نبي الإسلام، بينما أبوه أبو عامر الراهب الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم فاسقا، يشق طريقه نحو السعير، بتآمره مع المشركين في تخذيل قومه من الأوس، وصنع الكمائن لرسول الله.

-الصبر على المصاب الجلل، كما جسدته الصحابيات الجليلات في احتساب شهدائهن، ومنهن حمنة بنت جحش، التي نُعي إليها أخوها عبد الله، وخالها حمزة، وزوجها مصعب بن عمير، فصبرت واحتسبت.

وقد أسفرت المعركة عن مقتل 70 من المسلمين: 65 من الأنصار، من الأوس 24، ومن الخزرج 41، وقتل 5 من المهاجرين، ويهودي اسمه مخيريق. وقتل من كفار قريش 37.

وتواعد الفريقان على اللقاء في العام القابل عند بدر.

---

1 -نفسه، ج2 ص90.

2 -نفسه، ج2 ص88.

3 -نفسه، ج2 ص88-89.

4 -سورة آل عمران: 113-114.

ولم تكن أحد انتصارا خالصا لقريش، ولا كانت هزيمة محققة للمسلمين، فالكفار لم يغنموا شيئا من أموال المسلمين، ولم يأسروا منهم أحدا، ولا هم أقاموا في ساحة المعركة، أو دخلوا المدينة معقل خصمهم، كما يفعل الجنود الفاتحون، فلن تكن أحُد أكثر فرصة سنحت للكفار لينالوا من المسلمين، بفضل حسن استثمارهم للأخطاء الاستراتيجية التي ارتكبها الجيش الإسلامي، وقد مرت المعركة بثلاث مراحل:

الأولى: كانت فيها الكفة راجحة للمسلمين.

الثانية: تميزت بالإرباك ومالت لصالح الكفار.

الثالثة: استعاد فيها المسلمون زمام المبادرة فانسحب الكفار.

ومع ذلك فإن قريشا قد فشلت في تحقيق أهدافها المعلنة، وقنعت بما كبدته للمسلمين من خسائر في الأرواح، بلغت تقريبا ضعف خسائرها.

وفي غزوة أحد نزلت آيات من القرآن الكريم من سورة آل عمران، تصف الواقعة، وتوجه المسلمين نحو التماس الدروس والعبر، وتحذر المنافقين والمشركين من عقاب الله تعالى، وذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم**﴾[1]... إلى قوله سبحانه:﴿**مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيم**﴾[2].

وعند انتهاء المعركة صف النبي صلى الله عليه وسم أصحابه، ثم توجه إلى ربه بالدعاء، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند أنه قال: ((استووا حتى أثني على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفا، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع

1 -آل عمران: 121.

2 -آل عمران: 179.

لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعدا لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك))[1].

## غزوة حمراء الأسد:

وهي من لواحق أحد، حيث قرر النبي صلى الله عليه وسلم ملاحقة قريش وزجرهم عن التفكير في الرجوع لغزو المدينة واجتياحها، ورد الاعتبار للمسلمين عما لحقهم يوم أحد، فنادى بالمسير وألا يخرج معهم إلا من شهد أحدا، وكانت قريش تهم بالعودة للمدينة للنيل من المسلمين، وعمل أبو سفيان على ممارسة الحرب النفسية تجاه المسلمين، فوجّه رسالة للمدينة عبر ركب عبد القيس، بأنهم قد جمعوا جموعهم لاستئصال النبي وأصحابه، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيم**﴾[2].

أدار المسلمون كذلك الحرب النفسية والدعائية باقتدار، فوجهوا معبد بن أبي معبد الخزاعي ليخذل عنهم قريشا، فلقي أبا سفيان قبل تحرك جيش قريش نحو المدينة، فقال له: إن محمدا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. فكان ذلك من أسباب بث الرعب والهوان في نفوسهم، فانهارت معنوياتهم، فقرروا الانسحاب نحو مكة.

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد ثلاثة أيام، من شوال سنة 3 هـ، ثم رجع إلى المدينة، وأمر بقتل أبي عزة الشاعر، وكان أطلقه يوم بدر على أن لا يعود لهجاء المسلمين والتحريض عليهم، فغدر ولم يف بعهده، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يلدغ

1-مسند أحمد، مسانيد المقلين، والبخاري في الأدب المفرد، باب: دعوات النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث720.
2 -سورة آل عمران: 173-174.

المؤمن من جحر الأفعى مرتين»[1]، كما أمر بقتل جاسوس لقريش هو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه[2].

## النشاط العسكري بين أحد والأحزاب:

أصابت نتائج معركة أحد من هيبة المسلمين العسكرية، فزادت الأطماع والقلاقل العسكرية من القبائل المحيطة بالمدينة، ومن ذلك:

**أطماع بني أسد:** وقد وجهت إليهم سرية أبي سلمة فشتت جمعهم.

**حشد خالد بن سفيان الهذلي:** تم إنهاء أمره بسرية عبد الله بن أنيس[1].

**بئر الرجيع:** كانت في شهر صفر من سنة 4هـ، جاءت قبائل عضل والقارة تطلب قراء يقرئونها القرآن، فسار معهم عشرة من الصحابة، عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وذكر البخاري عاصم بن ثابت، فلما وصلوا بئر الرجيع قتلوهم، وباعوا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة بمكة ليقتلا، فتم صلب خبيب من قبل عقبة بن الحارث، وكان قتل أباه يوم بدر، وهو أول من سن الركعتين قبل الاستشهاد، أما زيد فقتله صفوان بن أمية[4].

**بئر معونة:** حدثت في الشهر نفسه من صفر سنة 4هـ، ذلك أن عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة، طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث معه إلى أهل نجد من يدعوهم للإسلام، فأرسل معه سبعين رجلا من القراء كما في البخاري، وذكر ابن إسحاق أربعين رجلا، فعدا عليهم عامر بن الطفيل، فاستنفر بني عامر فلم يجيبوه، ثم استنفر بني سليم فأجابته قبائل عصية ورعل وذكوان، فأحاطوا بهم فقتلوهم جميعا، إلا صحابيين نجيا من القتل،

---

1 -صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

2 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص60، وما بعدها، وابن حجر، فتح الباري، م س، ج7 ص375 وما بعدها، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص91 وما بعدها.

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص108-109.

4 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص169، وصحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة.

وقد حزن النبي صلى الله عليه وسلم لأجل ذلك، وقنت شهرا يدعو في صلاة الفجر على قبائل عصية ورعل وذكوان[1].

**غزوة بني النضير:** كان عمرو بن أمية الضمري أحد الناجين من مأساة بئر معونة، وفي أثناء رجوعه إلى المدينة قتل رجلين من كلاب، أخذا بثأر أصحابه، ظانا أنهما من الأعداء، ثم تبين أنهما معاهَدان من النبي صلى الله عليه وسلم، فعزم عليه الصلاة والسلام على دفع ديته، فكان ممن قصد للإعانة في جمع الدية بني النضير، فخططوا لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم عبر إلقاء رحى على رأسه من أعلى الحصن، فأخبره جبريل فرحل من حينه، ثم عزم النبي صلى الله عليه وسلم على محاصرتهم وإجلائهم، وأمهلهم عشرة أيام للرحيل، فغرر بهم عبد الله بن أبي بن سلول، وقد حكى ذلك القرآن في قوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُون * لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُون**﴾[2].

فحاصر المسلمون بني النضير في حصونهم، وحرقوا نخلهم، ودام الحصار ست ليال، وخذلهم حلفاؤهم من بني قريظة ولم يف عبد الله بن أبي بن سلول بما وعدهم به من النصرة، وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة[3].

-**غزوة نجد:** سببها ما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم من تجمع أعراب بني محارب وبني ثعلبة، من قبائل غطفان، فخرج إليهم يجوب فيافي بيداء نجد، ويلقي الرعب في قلوب الأعراب، فذعروا وتفرقوا، ويطلق بعض أهل السير على هذه الغزوة ذات الرقاع، وهذا لا يصح، لأن ذات الرقاع شهدها أبوموسى الأشعري، وأبو هريرة عبد الرحمن بن دوس الصخري، ولم يسلما إلا في السنة السابعة أو قريبا منها، فقد أسلم أبوهريرة قبيل خيبر، بينما قدم أبو موسى الأشعري على النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر[4].

1 -أنظر: صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة.

2 -سورة الحشر: 11-12.

3 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص190-192، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص71 وما بعدها، وصحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير.

4 -أنظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص212.

-**غزوة بدر الثانية:** كانت قريش والمسلمون قد ضربوا أثناء الانسحاب من أحد موعدا للقاء عند بدر، فلما حضر الموعد خرج المسلمون ليديروا رحى الحرب، ويعيدوا الكرّة على قريش مرة أخرى، وكان خروجهم في شعبان من السنة الرابعة للهجرة، في ألف وخمسمائة مقاتل، فانتهوا إلى بدر وأقاموا بها ثمانية أيام، أما أبو سفيان فما كاد يبلغ الظهران حتى خار عزمه وعاد بجيشه إلى مكة، فزاد ذلك من هيبة المسلمين، وتسمى هذه الغزوة كذلك ببدر الموعد[1].

-**غزوة دومة الجندل:** ودومة الجندل توجد في حدود الشام، تبعد عن المدينة بخمس عشرة ليلة، وتقرب دمشق بخمس ليال، وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم، أن قبائل دومة الجندل تقطع الطريق على التجار، وعقدوا العزم على غزو المدينة، فخرج إليهم في ألف مقاتل، فلما صبّحهم فروا هاربين، فغنم المسلمون ماشيتهم ومتاعهم، وكان ذلك في ربيع الأول من السنة الخامسة من الهجرة[2].

لقد كان من نتيجة هذه الحملات العسكرية المكثفة، استعادة المسلمين لهيبتهم التي نالت منها موقعة أحد، وكبح جماح الطامعين في استباحة المدينة، سواء من أهل الجوار من الأعراب البدو، أو من اليهود، وتحديدا يهود بنو النضير.

لكن الوضع الجديد سيثير مخاوف كبرى لدى القبائل العربية، المتوجسة من تشكل كيان قوي ذي سلطان ومنعة، من شأنه أن يهدد مصالحهم السياسية والاقتصادية، مما عجل بقيام تحالف جديد ضد الدولة الإسلامية الناشئة، تشكل من قبائل العرب الكبرى واليهود، وهو ما أطلق عليه القرآن: **(الأحزاب).**

## غزوة الأحزاب أو الخندق

غزوة الأحزاب وتسمى أيضا غزوة الخندق، شكلت أكبر تهديد عسكري للدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة، وقد كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة، واستمرت نحو

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص209-210.

2 -المباركفورين الرحيق المختوم، م س، ص213.

شهر، وترجع أسبابها المباشرة إلى ما قام به يهود خيبر ومن معهم من بني النضير، من تأليب قريش وغطفان وبني قريظة، وعدد من قبائل العرب، على حرب المسلمين واجتياح المدينة.

فاتجهت هذه الأحزاب إلى المدينة على موعد محدد بينهم، فخرجت من الجنوب قريش وكنانة وتهامة، يقودهم أبو سفيان في أربعة آلاف مقاتل، ولحقت بهم بنو سليم عند مر الظهران، وجاءت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرة يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع وبنو أسد. فتجمعت الأحزاب حول المدينة في عشرة آلاف.

وانعقد مجلس الشورى الإسلامي بالمدينة، فاستقر الرأي على الأخذ بالاستراتيجية الحربية التي اقترحها سلمان الفارسي ببناء الخندق، فشرع المسلمون فورا في تنفيذ الخطة، فكان كل عشرة رجال يحفرون أربعين ذراعا، وكانت المدينة تحيط بها الجبال والحَرّات والبساتين، فلم يكن من منفذ إلا من جهة الشمال، فتم حفر الخندق في الجهة الشمالية، لصد جموع الأحزاب ومنعها من اجتياح المدينة.

وقد خرج المسلمون للقاء العدو في ثلاثة آلاف مقاتل، فكانت ظهورهم لجبل سلع، وبينهم وبين الكفار الخندق، وشعارهم: **هم لا ينصرون**[1].

تفاجأ الكفار بخطة الخندق، فدخلوا في حصار طويل لم يكونوا مستعدين له، واستبسل المسلمون في صد كل محاولات اقتحام الخندق، وكان من شدة انشغال المسلمين بجسامة الخطب أن فاتتهم صلاة العصر، فلم يصلوها إلا بعدما غربت الشمس، وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ملأ الله عليهم قبورهم وبيوتهم نارا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس))[2]، وفي مسند أحمد أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعا، فيحتمل كما ذكر النووي أنها وقائع متفرقة لأن «وقعة الخندق بقيت أياما، فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها»[3].

---

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج3 ص330 وما بعدها، وصحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

2 -صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى.

3 -النووي أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط2، 1414هـ/1994م، ج1 ص227.

ونزل القرآن الكريم مواكبا لوقائع عزوة الخندق في سورة الأحزاب، يقول سبحانه في بيان خطورة الموقف: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُوَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَوَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا**﴾[1]، ويصف القرآن موقف المؤمنين وثباتهم في ذلك المشهد: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾[2]، كما يصف موقف المنافقين وتخاذلهم: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ ياأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا**﴾[3].

وقد أصيب يوم الخندق -أثناء الترامي بالنبال- سعد بن معاذ إصابة بليغة، كانت سبب وفاته رضي الله عنه، وتمكنت صفية رضي الله عنها من قتل يهودي، يحوم حول حصن حسان بن ثابت، وكانت نساء مسلمات تحتمين به، فنزلت إليه وضربته بعمود حتى أردته قتيلا ثم عادت للحصن، فلما عثر عليه يهود بني قريظة، وكان قد استبان غدرهم، ظنوا أن حصون المسلمين محمية بالمقاتلين فلم يجرؤوا على أي محاولة أخرى، وكان لهذا الموقف أثره في حماية نساء وذراري المسلمين من غدر بني قريظة، وكان بنو قريظة مترددين بداية في نقض العهد، فلم يزل بهم إخوانهم من اليهود حتى انضموا للأحزاب، فكانت وظيفتهم هي إمداد الأحزاب بالمؤن[4].

## أسباب النصر:

ما كاد الموقف يشتد في موقعة الخندق، حتى لاحت أعلام النصر وبشائره للمسلمين، وبانت معالم الخذلان والهزيمة للكفار، فكان من أسباب النصر ما يأتي:

**الخطة العسكرية:** نهج المسلمون خطة عسكرية محكمة، تجاه عدو يفوقهم عددا وعدة أضعافا كثيرة، وهي خطة الخندق التي كبحت جماح الكفار، وأفشلت خططهم

1 -سورة الأحزاب: 10-11.

2 -سورة الأحزاب: 22.

3 -سورة الأحزاب: 12-13.

4 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج 2 ص220.

الهجومية وشلت قدراتهم العسكرية، فكان كل من يحاول مجاوزة الخندق من أبطالهم يلقى موتا محققا، كما حصل لطاغيتهم عمرو بن ود العامري الذي قتله علي رضي الله عنه.

**خطة تفتيت وحدة العدو:** وهذا ما اضطلع به رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، الذي أسلم حديثا ولم يعلم قومه بإسلامه، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب وظيفة يقوم بها في نصرة الإسلام، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة، فأعد نعيم خطة للتخذيل وبث الفرقة بين صفوف العدو، وقد كانوا قبائل متنافرة، لا يجمع بينها شيء سوى معاداة الإسلام، ورفض قيام دولته بالمدينة.

فذهب إلى بني قريظة وكانت تربطه بهم روابط في الجاهلية، فحذرهم من خذلان قريش والعرب لهم بعد أن تنفض الحرب، وأشار عليهم بأن لا يشاركوهم الحرب حتى يمكنوهم من رهائن يستوثقون بها لأنفسهم، ثم قصد قريشا، فأخبرهم أن بني قريظة ندموا على نقضهم عهد محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم اتفقوا معه على أن يمكنوه من بعض رجالكم، يأخذونهم رهائن منكم، فإن سألوكم رهائن فلا تسلموهم شيئا، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم نحو ذلك، فلما طالبوا قريظة بنصرتهم طلبت إليهم الرهائن، فقالوا: لقد صدق والله نعيم، فدبت الفرقة في صفوف الكفار وسرى بينهم التخاذل، ولم يعد أحد منهم يثق بالآخر[1].

**دعاء المسلمين:** وكان من دعائهم ما رواه البخاري: ((اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا))، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم على الأحزاب: ((اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم))[2].

**الريح الشديدة:** وكان من أعلام النصر، أن أرسل الله على المشركين، في ليلة باردة، ريحا شديدة قلبت قدورهم، وقلعت خيامهم، قال تعالى: ﴿**ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾[3]، وكان قد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الباردة القارسة

1 -ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، م س، ص186.

2 - صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

3 -سورة الأحزاب: 9.

حذيفة بن اليمان ليبلو أخبار القوم، فوجدهم يتهيأون للرحيل، فعاد ليخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

فانتهى بذلك أخطر تهديد للوجود الإسلامي بالمدينة، وقد استغرق الحصار شهرا، فبدأ في شوال وانتهى في ذي القعدة، فهزم الله الأحزاب، وانقلبوا خائبين لم يحققوا من أهدافهم شيئا، وحقق المسلمون النصر المبين، بفضل تضافر المدد الغيبي مع إحكام الأسباب المادية، فكانت معركة الخندق أشبه بالحروب الاستراتيجية التي يكون معتمدها ومدارها على الخبرة العسكرية والاستخباراتية، لا على حجم الجيوش والعدة والعتاد العسكري.

وبانتهاء غزوة الخندق وانسحاب الأحزاب عن المدينة طويت صفحة من الحروب الدفاعية، وانطلقت مرحلة جديدة أشر عليها قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم))[1].

1 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب.

# القسم السادس:

# الطريق نحو الفتح المبين: من الحديبية إلى فتح مكة

بانتهاء غزوة الأحزاب وانصراف جموع العرب عن المدينة، طوى المسلمون مرحلة من الصراع مع الأعداء يحكمها منطق دفاعي، لتستشرف الدعوة أفقا جديدا يندرج ضمن خطها الصاعد، كما أشر عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم))، لتكون المبادرة في هذه المرحلة للمسلمين، فيستمر الكفاح الدامي ضد أعداء الدعوة الإسلامية، وذلك بالتوازي مع جهود الدعوة التي تجاوزت الأفق الإقليمي العربي، نحو العالم وقواه الفاعلة آنذاك.

## غزوة بني قريظة:

تتصل أسباب غزوة بني قريظة بأحداث غزوة الخندق، وقد مضى الحديث عن يهود قريظة مع الأحزاب وإمدادهم بالمؤن، إلى أن أفشل وحدتهم نعيم بن مسعود الأشجعي، وبث الفرقة بين الأحزاب بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم.

فلما انصرف عليه الصلاة والسلام من الخندق، أتاه جبريل وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أوقد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب من القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة: ((ألا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة))، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحدا منهم[1].

وكان عدد الجيش الإسلامي ثلاثة آلاف، ومعهم من الخيل 30 فرسا، وكان بنو قريظة لديهم ما بين ستمائة وسبعمائة مقاتل.

وفرض المسلمون على قريظة حصارا خانقا، فاضطرب أمرهم وأصابهم الهلع، وعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد الدخول في الإسلام أو الخروج لقتال المسلمين، فأبوا، ثم شاوروا

1 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم.

أبا لبابة في شأن النزول على أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فأشار عليهم بالذبح، فندم أبو لبابة، وعلم أنه خان النبي صلى الله عليه وسلم، فهام على وجهه، ثم أتى المسجد وربط نفسه إلى سارية، وحلف ألا يطلقه إلا رسول الله.

ورغم مشورة أبي لبابة، فقد نزلت قريظة على حكم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بإمكانهم أن يتحصنوا في داخل حصونهم وصياصيهم لوفرة مؤنهم، وقدرتهم على الصبر وتحمل الحصار الطويل، لكن الله قذف في قوبهم الرعب بعد أن شاهدوا جيش المسلمين.

وحكّم النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم سعد بن معاذ -وهو جريح- وكان حليفهم في الجاهلية، فرضوه حكما، فحكم بقتل الرجال، وسبي الذراري، وتقسيم الأموال، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات[1].

وكان بنو قريظة قد جمعوا لاستئصال المسلمين ألفا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة ذرع، وخمسمائة ترس وجحفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وقتل في هذه الغزوة خلاد بن سويد، طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحا فقتلته، ومات في الحصار أبوسنان بن محصن، وهو أخو عكاشة بن محصن.[2]

ومات سعد بن معاذ بعد تمام أمر بني قريظة، وكان قد أصيب إصابة بليغة في غزوة الخندق، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[3].

## النشاط العسكري بين غزوة بني قريظة وغزو بني المصطلق:

**سرية محمد بن مسلمة:** كانت في محرم من السنة السادسة من الهجرة، شارك فيها ثلاثون رجلا قصدوا القرطاء بالبكرات من أرض نجد على بعد سبع ليال من المدينة، فأغاروا على بني بكر بن كلاب فغنموا مؤنهم ومواشيهم بعد أن فر القوم، وأسروا في الطريق سيد بني

1 - صحيح البخاري،كتاب: المغازي، باب: مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم.

2 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص227.

3 -صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه.

حنيفة ثمامة بن أثال الحنفي، كان يريد اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من مسيلمة الكذاب، فقدموا به المدينة وقيدوه إلى سارية، ثم أسلم وحسن إسلامه، وكان سيد اليمامة وهي ريف مكة، فقطع عنهم الحنطة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ففعل صلى الله عليه وسلم[1]، وأبى أن يفعل بهم ما صنعوا ببني هاشم في الشعب.

**غزوة بني لحيان:** وهم من غدروا بالصحابة العشرة يوم الرجيع، وكانت ديارهم قريبا من مكة، ولذلك ترك أمر الثأر منهم إلى ما بعد الأحزاب، فقصد النبي صلى الله عليه وسلم ديارهم ففروا هاربين، وأقام بأرضهم يومين، وترحم على أصحابه الشهداء، وكان خروجهم في ربيع الأول من السنة السادسة.

**سرية عكاشة بن محصن:** كانت في ربيع الآخر من السنة السادسة، خرجوا في أربعين رجلا يقصدون بني أسد، ففر القوم وأصابوا من غنائمهم مائتي بعير.

**سرية محمد بن مسلمة:** قصدت ذا القصةِ من ديار بني ثعلبة، في ربيع الآخر من السنة السادسة، وكانوا عشرة رجال، فوضع لهم القوم كمينا وهم مائة، فلما ناموا قتلوهم جميعا، ولم يفلت منهم إلا محمد بن مسلمة فر منهم جريحا.

**سرية أبي عبيدة بن الجراح:** بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الآخر، أي بعد أيام فقط من مقتلة أصحاب محمد بن مسلمة، ومعه أربعين رجلا، إلى ذي القصة للثأر لأصحاب محمد بن مسلمة، فأغاروا على بني ثعلبة صبحا ففروا إلى الجبال، وغنموا الكثير من مواشيهم، وأسروا رجلا منهم فأسلم.

**سرية زيد بن حارثة:** كانت أيضا في ربيع الآخر من السنة السادسة، قصدوا ماء لبني سليم في مر الظهران، يقال له الجموم، أغاروا على محلة لنبي سليم دلتهم عليها امرأة من مزينة، فغنموا الكثير من المواشي، وأسروا بعض الأسرى، فمنّ النبي صلى الله عليه وسلم على المرأة المزينية وزوجها.

---

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص119.

**سرية زيد بن حارثة:** قصد العيص في سبعين ومائة راكب، في جمادى الآخرة من سنة 6 هـ. فأصابوا عيرا لقريش، يقودها أبو العاص خِتْن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفلت منهم أبو العاص، وجاء إلى المدينة فاستجار بزينب بنت رسول الله، وكانت زوجه قبل أن يفرق بينهما الله، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم أمواله، فقدم بها مكة، ورد الودائع إلى قريش، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة، ورد عليه النبي صلى الله عليه وسلم زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، وهو الأصح كما ورد في سنن أبي داوود[1]، وقد ماتت زينب رضي الله عنها في السنة الثامنة من الهجرة.

**سرية زيد بن حارثة:** قصد في خمسة عشر رجلا أعراب بني ثعلبة، في جمادى الآخرة من سنة 6هـ، ففر الأعراب مذعورين ظنا منهم أن المسلمين قصدوهم بجيش كبير، فغنموا من أموالهم عشرين بعيرا.

**سرية زيد بن حارثة:** وكانوا اثني عشر رجلا خرجوا في شهر رجب من سنة 6هـ، في مهمة استطلاعية لتحركات العدو، فهاجمهم سكان وادي القرى فقتلوا تسعة منهم، وأفلت منهم زيد ورجلان.

**سرية الخبط:** وقد قادها أبو عبيدة بن الجراح في ثلاثمِائة راكب، يرصدون عيرا لقريش، ويرجح أنها كانت قبيل الحديبية، لأن المسلمين بعد الحديبية لم يكونوا يتعرضون لتجارة قريش. وقد أصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط (الخبط ما سقط من أوراق الأشجار)، فأطلق عليهم جيش الخبط، وذكر البخاري ومسلم أنهم قصدوا ناحية البحر فألقى إليهم دابة يقال لها العنبر، فأكلوا منه نحو نصف شهر وتزودوا منه، فلما قدموا المدينة ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا، فأرسلوا منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منه[2].

1 -سنن أبي داود، كتاب: الطلاق، باب: إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

2 -المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ج2 ص229-231.

## غزوة بني المصطلق أو المريسيع:

لم تكن هذه الغزوة حافلة بالنشاط العسكري بقدرما كانت حافلة بالوقائع التي أفضت إلى إثارة البلبلة والاضطراب داخل الكيان الإسلامي، والتي أدت إلى افتضاح أمر المنافقين، وانكسار شوكتهم.

كانت هذه الغزوة في شعبان من سنة 6 هـ، وسببها ما بلغ المسلمين من تجهز بني المصطلق ومن معهم من العرب، يقودهم الحارث بن أبي ضرار لحرب المسلمين، فقصدهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى ماء لهم يقال له المريسيع، وكان يحمل اللواء أبو بكر الصديق، فتراموا بالنبال ساعة، ثم حمل عليهم المسلمون حملة نكراء فكان لهم النصر، فانهزم المشركون وولوا الأدبار، وغنم المسلمون أموالهم وسبوا ذراريهم.

وهذا الذي ورد عن أهل السير والمغازي خلاف ما رواه البخاري أنه «أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارّون»[1]، وتوجيه ذلك أن بني المصطلق كان قد بدا منهم الغدر، وباشروا الأعمال العدائية، فلم تعد من حاجة لإعلامهم، وفي هذه الغزوة سبيت جويرية بت الحارث سيد بني المصطلق، فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله. فلم تكن هناك امرأة أشد بركة على قومها من أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها.

## فصول من سلوك المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول:

لم يكن دخول عبد الله بن أبي ابن سلول للإسلام بعد بدر إلا تمويها ومحاولة لفك العزلة عن نفسه، بعدما دخل أهل المدينة جميعا في الإسلام، فظل على عدائه القديم للإسلام وللنبي صلى الله عليه وسلم، وكان من وقاحته أنه كان يقف كل يوم جمعة، حين يجلس النبي صلى الله عليه وسلم للخطبة، فيقول: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا وأطيعوا، ثم يجلس، فيقوم النبي صلى

1 -أنظر: صحيح البخاري، كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقا...

الله عليه وسلم للخطبة، حتى كان بعد الذي حصل منه في أحد، قام ليقول ما كان يقوله من قبل، فأخذ المسلمون بثيابه وأجلسوه، فخرج من المسجد غاضبا يتخطى الرقاب[1].

وقد سبق الحديث عن بعض سلوكات المنافقين في أحد وفي الأحزاب، وما قاموا به من خذلان وتثبيط للمسلمين في لحظات المواجهة الحاسمة.

ومما ولغ فيه عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه المنافقون، أمر زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش، حتى نزل القرآن قاطعا وساوسهم.

وكان الله تعالى قد حذر من خروج المنافقين مع المسلمين في الغزو في قوله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين**﴾[2]، وقد وجد المنافقون الفرصة لبث الفتنة والشر والخبال في صفوف المسلمين بعد غزوة بني المصطلق، تمثل في الحادثين الآتيين:

**1-حادثة «ليخرجن الأعز منها الأذل»**: من الوقائع التي فضح الله فيها المنافقين، أنهم بعد الفراغ من غزوة بني المصطلق، تشاجر غلامان، أحدهما لعمر بن الخطاب واسمه جهجاه الغفاري، والآخر هو سنان بن وبر الجهني، فنادى أحدهما على الأنصار والآخر على المهاجرين، وبلغ ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول فقال: أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله نحن وهم كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمعه زيد بن أرقم وكان غلاما حدثا، فأخبر عمه ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر، فاستأذن عمر في ضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

فلما علم عبد الله بن أبي ابن سلول ببلوغ كلامه النبي صلى الله عليه وسلم أنكر ذلك، وحلف عليه بأغلظ الأيمان، حتى صدقه بعض الأنصار، وقالوا عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، فأصاب زيدا غم وهم لتكذيب كلامه من بعض الأنصار، فما لبث أن نزل القرآن مصدقا له وفاضحا عورات المنافقين، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا**

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص105.

2 -سورة التوبة: 47.

**نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُون * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُون * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُون * سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُون * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُون﴾[1].**

فبعد أن افتضح أمر عبد بن أبي بن سلول جاء ابنه عبدالله، وكان رجلا صالحا، فتبرأ من أبيه، ووقف على باب المدينة، واستل سيفه، ومنع أباه من الدخول، حتى أذن له رسول الله بذلك فخلى سبيله، واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أن يضرب عنق أبيه فلم يأذن له بذلك[2].

### 2-حادثة الإفك والبهتان:

وخلاصتها كما روى ذلك البخاري[3] عن عائشة رضي الله عنها، أنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، فلما فرغ من غزوته تلك وقفل، وآذن بالرحيل، قامت عائشة لبعض شأنها ثم رجعت إلى رحلها، فوجدت عقدها قد انقطع، فرجعت تلتمسه، فارتحل الناس، وحملوا هودجها ظنا منهم أنها فيه، ولم يشعروا بشيء لخفتها، ثم انطلقوا، فلما وجدت عقدها رجعت إلى منازل القوم، فلم تجد بها أحدا، فبقيت في مكانها لعل القوم يفتقدونها ثم يعودون إليها، ولم يكن بقي وراء القوم سوى صفوان بن المعطل، فلما رآها وعرفها استرجع ولم يكلمها بشيء، وأناخ الراحلة فركبت، فقاد بها الراحلة حتى لحق بالجيش في حر الظهيرة، فلما رآها الناس هلك من هلك، وتولى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول

1 -سورة المنافقين: 1-8.

2 -أنظر: صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، سورة المنافقين، باب: قوله يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل.

3 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: حديث الإفك والأفك بمنزلة النجس.

نشر الإفك بين الناس، أما عائشة رضي الله عنها فشكت ألما برأسها نحو شهر، وهي لا تدري ما يفيض فيه الناس من الإفك، غير أنها لا تجد من النبي صلى الله عليه وسلم ما كانت تلقاه من اللطف حين تشتكي، ولم تعلم بالأمر إلا بعد أن أخبرتها أم مسطح، فازداد ألمها وغمها، وباتت ليلتها لا تكتحل بنوم، والدمع لا يبرح مقلتها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم في شأنها عليا وزيد بن حارثة وزينب بنت جحش وبريرة الجارية، فلم يقولوا فيها إلا خيرا، ثم صعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فقال: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني منه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان، الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت».

واستمرت محنة أم المؤمنين بعد علمها بخبر الإفك، بين ما تشكوه من ألم المرض وألم الإفك والبهتان، قالت:» فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه. قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت

لأبي: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عني فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا، إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال: (**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**)[1]، ثم تحولت واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة، أما الله فقد برأك، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل، قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾ العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق: -وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره- والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿**وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم**﴾[2]، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

والآيات العشر التي نزلت في الإفك هي قوله عز من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيم * لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**

1- سورة يوسف:18.

2 -سورة النور: 22.

**وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِين * لَوْلاَ جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُون * وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيم * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيم * وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيم * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون * وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيم﴾**[1].

أما صفوان بن المعطل الرجل الذي قيل له ما قيل، فحزن حزنا شديدا، وكان يقول: سبحان الله فو الذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط، ثم استشهد بعد ذلك في سبيل الله.

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، فضربوا حد الفرية، أما رأس المنافقين فلم يُحدّ إما لأن النبي صلى الله عليه وسلم تركه للعقاب الأخروي، لأن الحد تخفيف وتكفير عن الذنب، أو تركه لسياسة المصالح التي كان يرعاها، وأيا كان الأمر فقد افتضح أمره حتى لم يعد في المدينة أحد يكلمه أو يجالسه، إلا ما كان من أصحابه المنافقين، فكان هذا أخطر موقف ينال فيه المنافقون من عرض النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ندم حسان على ما كان منه فكان يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

وكانت الصديقة العفيفة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأجل قوله ذاك، تكره أن يسب حسان في حضرتها.

## البعوث والسرايا بعد غزوة بني المصطلق:

**سرية عبد الرحمن بن عوف** إلى دومة الجندل من ديار بني كعب، وكانت في شعبان من سنة 6هـ، فأسلموا جميعا، وتزوج عبد الرحمن بنت ملكهم وسيدهم، وهي تماضر بنت الأصبغ.

1 -سورة النور: 11-20.

**سرية علي بن أبي طالب** إلى بني سعد بفدك، وكانت أيضا في شعبان من سنة 6هـ، وكانوا في حلف مع يهود خيبر ضد المسلمين، فشتت جمعهم وغنم الكثير من أموالهم.

**سرية أبي بكر الصديق** إلى وادي القرى في رمضان من سنة 6هـ، فشتتوا جمعهم، وقتلوا منهم، وغنموا من أموالهم وسبيهم، وكان بنو فزارة تقودهم امرأة اسمها أم قرفة، يخططون لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم، فلقوا عاقبة كيدهم.

**سرية كرز بن جابر الفهري** إلى عرينة وعكل، وكان رهط منهم أظهروا الإسلام ثم غدروا بالمسلمين، فلما أدركهم أقام عليهم حد الحرابة.

**سرية عمرو بن أمية الضمري** مع سلمة بن أبي سلمة لاغتيال أبي سفيان، ردا على محاولة أبي سفيان اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم عبر أعرابي أرسله إلى المدينة، فلم تنجح أي من المحاولتين[1].

## موقعة الحديبية:

سببها: رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام بدخول المسجد الحرام، ورؤيا الأنبياء وحي، ورؤيا المومنين بشرى، وجزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة[2].

فاستنفر النبي المسلمين للخروج، فخرجوا في ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة، وتخلف عن اللحاق به كثير من الأعراب، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه زوجه أم سلمة يوم الاثنين في غرة ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة.

وأحرموا بالعمرة بذي الحليفة، وأصرت قريش على صدهم عن البيت، فأرسلت مائتي فارس يقودهم خالد بن الوليد، رابطوا بمكان قريب بذي طوى بكراع الغميم على الطريق الرئيسي نحو مكة، ولمح خالد المسلمين يؤدون صلاة الظهر فهم أن يميل عليهم إذا اجتمعوا للصلاة مرة أخرى، فأنزل الله حكم صلاة الخوف قبل العصر، ففاتته الفرصة.

1 -المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ج2 ص238-239.

2 -أنظر: صحيح البخاري، كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزء من النبوة.

وسلك المسلمون طريقا آخر غير الطريق الرئيسي تجنبا للاصطدام، ولما بركت ناقته بثنية المرار قالوا: خلأت القصواء، فقال: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها، ثم نزل بأقصى الحديبية بمكان قليل الماء فشكوا ظمأ، فأخرج سهما من كنانته فجعلوه فيه، فما زال يجيش لهم بالري حتى رووا وصدروا عنه[1].

وتسللت ليلا من جبل التنعيم عصابة من شبان مكة الطائشين إلى معسكر المسلمين، فأسرهم قائد الحرس الإسلامي محمد بن مسلمة جميعا، وهم ما بين السبعين والثمانين، وكان غرضهم أن يجهضوا أية محاولة للصلح، فعفا عنهم النبي صلى الله عليهم وأطلق سراحهم، ولأجل ذلك سموا العتقاء أو العتقيين[2]،ونزل في ذلك قوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾[3].

**الوساطات والبعوث بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش:**

**وساطة بديل بن ورقاء الخزاعي:** قدم في نفر من خزاعة، فأخبروا النبي صلى الله علي وسلم بعزم قريش صده عن البيت، فأخبرهم أنه لم يأت للقتال بل للاعتمار وزيارة البيت، فذهب بديل بكلام النبي إلى قريش.

**إرسال قريش مكرزبن حفص:** وكان رجلا غادرا، ليتحقق من الأمر، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبر به بديل بن ورقاء.

**إرسال قريش لحليس بن علقمة الكناني:** وكان قومه يعظمون البدن،فاستقبله المسلمون وقد بعثوا البدن وهم يلبون، فرجع إليهم فقال: رأيت البدن وقد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت.

1 -ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، م س، ص204-205.

2 -المرجع نفسه، ص207.

3 -سورة الفتح: 24.

**إرسال قريش عروة بن مسعود الثقفي**: فكلمه النبي صلى الله عليه وسلم بما كلم به بديل بن ورقاء، فجعل عروة يكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلام مستفز، ويحذره من أن يفر عنه الناس ويدعونه، فأجابه الصديق، ثم أجابه ابن أخيه شعبة بن المغيرة، وكان شعبة كلما أخذ عروة بلحية النبي صلى الله عليه وسلم أهوى على يده بنصل السيف، ثم رجع عروة إلى قريش فأخبرهم بما رأى من تعظيم الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: والله لقد وفدت على الملوك، وعلى قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيما له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[1].

**إرسال النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان سفيرا إلى قريش**، ليبين لهم مقصده من هذا الخروج، وكانت لعثمان عشيرة تمنعه من أذى قريش، فلما دخل مكة بلّغهم القصد، ثم أجاره أبان بن سعيد بن العاص ورحب به، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فأبى أن يطوف قبل طواف النبي صلى الله عليه وسلم، واحتبسته قريش حتى يتشاوروا بينهم ويردوا عليه جوابهم، فطال الأمر حتى شاع بين المسلمين أن عثمان قتل غدرا من قبل قريش.

**بيعة الرضوان:** لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم إشاعة مقتل عثمان، غضب لذلك وقال: لا نبرح حتى نناجز القوم، فاجتمع الصحابة لبيعته على القتال وعلى أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت في سبيل الله، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، وأخذ النبي صلى عليه وسلم بيد نفسه وقال: هذه عن عثمان، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين، اسمه الجد بن قيس، وتمت البيعة تحت شجرة، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[2].

1 -المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ج2 ص242.
2 -سورة الفتح: 18.

**مسارعة قريش إلى إبرام الصلح:** أدركت قريش خطورة الموقف إثر إبطائها عن إرسال عثمان، فأرسلت سهيل بن عمرو لإبرام الصلح، وخلاصة بنود الصلح كالآتي:

1-عدم دخول المسلمين مكة لزيارة البيت والاعتمار إلا في العام القابل.

2- وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين.

3- فتح المجال للأحلاف، فدخلت خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في حلف قريش.

4- إرجاع من جاء إلى المدينة من قريش مسلما بغير إذن أهله إلى وليه، ولا ترجع قريش إلى المسلمين من جاءها هاربا من المدينة.

وكان الذي يكتب الكتاب علي بن أبي طالب، فأملى عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب باسم الله الرحمن الرجيم، فاعترض سهيل بن عمرو مبعوث قريش، وطلب أن تكتب باسمك اللهم، واعترض سهيل كذلك على كتابة محمد رسول الله، وقال: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن أكتب محمد بن عبد الله، فقال: إني رسول الله وإن كذبتموني، وأمر عليا أن يكتب محمد بن عبد الله، ويمحو ما كتبه، فأبى علي ذلك، فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده.

وما كاد يبرم الصلح حتى قدم أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فرده النبي صلى الله عليه وسلم على سهيل، فكان أبو جندل يصرخ قائلا: يا معشر المسلمين أَأُردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم.

ثم جاءت نسوة مؤمنات مهاجرات فطلب أولياؤهن ردهن بموجب بنود الصلح، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم لأن بنود الصلح لا تشملهن، ولأن صيغة البند تنص: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته»[1].

1 -صحيح البخاري، كتاب: الصلح، باب: الصلح مع المشركين.

ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1]، فحرّم من حينها على المسلمين الزواج بالمشركات.

## استياء الصحابة من بنود صلح الحديبية:

لم يستوعب كثير من الصحابة مقاصد الصلح وغاياته ومراميه البعيدة، فأصابهم الغم والحزن لأجل ذلك، وأضمروا في نفوسهم الاعتراض وعدم الرضى، ذلك أن ظاهر الصلح يبدو كما لو أنه تضمن هزيمة محققة للمسلمين، ونصرا سياسيا خالصا للمشركين، ومن أشدهم حزنا لذلك عمر بن الخطاب الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية من ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، ولن يضيعني أبدا، قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به، ثم انطلق عمر متغيظا فأتى أبا بكر فقال له نحو ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال له أبوبكر: إنه رسول الله ولن يضيعه، فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، فنزلت سورة الفتح، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمر فأقرأه إياه فقال: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه ورجع فندم على ما كان منه ندما شديدا[2].

ومما يدل على حجم الاستياء من بنود الصلح، وأنه كان حالة عامة، وليس موقفا خاصا بعمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالنحر، وكررها ثلاثا، فلم يقم لأمره أحد، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت عليه بأن يخرج ولا يكلم أحدا فينحر بدنه، ويدعو حالقه فيحلقه، ففعل ذلك، فقام الناس فنحروا، وجعل بعضهم

1 -سورة الممتحنة: 10.

2 -ينظر: ابن حجر، فتح الباري، م س، ج7 ص439 إلى 457، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص122 إلى 127، وابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1342هـ/1924م، ص39-40.

يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا، من فرط الغم والحزن، وكانوا ينحرون البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر النبي صلى الله عليه وسلم جملا كان لأبي جهل، في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين.

وقد كان لأم المؤمنين أم سلمة بهذه المشورة موقف عظيم مشهود، أنقذت به المسلمين من غضب الله ورسوله، ومن الهلاك، بسبب مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال سبحانه: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم**﴾[1].

كما دحضت تلك العبارة الزائفة المدسوسة في تراثنا، التي تقول: شاوروهن وخالفوهن، كيف وهذه أم سلمة أنقذت المسلمين بحسن مشورتها للنبي عليه الصلاة والسلام.

ولعل أهم أسباب الاستياء التي حصلت للمسلمين بعد إبرام الصلح تعود لأمرين:

الأول: مبدأ العزة والأنفة على الكفار، الذي تمثّلَه الصحابة طيلة مراحل صراعهم مع معسكر الشرك، ولم يكن أحد منهم يتوقع صلحا على هاته الشاكلة، وزاد من شدة الأمر عليهم استفزازات مبعوثي قريش لهم، وإرجاع أبي جندل للكفار، وكأنهم ظنوا أن الدعوة تحني جبينها للكفر، من خلال ما تضمنته بنود الصلح من تنازلات صريحة، دون إدراك لما ينطوي عليه الأمر من ممهدات النصر، ومقدمات الفتح المبين.

الثاني: عدم إدراك كثير من الصحابة أن السياق في مسار أحداث الحديبية سياق رباني، يحكمه الغيب والوحي، لا الرأي والتدبير والخدعة والمكيدة، فكان مبتدأ الحديبية رؤيا، ورؤيا النبي وحي معصوم، ومبرك الناقة (القصواء) وحي، وكذلك جنوح النبي الكريم نحو الصلح أيضا وحي رباني، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لما وصل الحديبية: ((والله لا تسألني قريش اليوم خطة يعظمون بها البيت إلا أجبتهم إليها))[2]، وقد كان من عادته صلى الله عليه وسلم أنه يشاور أصحابه في كل صغيرة وكبيرة، ولا يقرر أمرا من أمور الحرب والسلم دونهم، اللهم في أمور الوحي فكان يمضي أمر ربه دون مشورة أحد.

1 -سورة النور: 63.

2 -سنن أبي داود، كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو.

والحقيقة أن صلح الحديبية شكل منعطفا حاسما لانتقال الدعوة الإسلامية نحو مرحلة جديدة، يستشرف من خلالها الفتح المبين، والنصر والتمكين، داخل حدود الجزيرة العربية وخارجها، ذلك أن توقف الحرب مع قريش -العدو اللذوذ للإسلام- سيؤدي إلى تحييدها من دائرة الصراع، لتنتهي بذلك مرحلة من حروب الاستنزاف والتعبئة الدائمة للمواجهة، وسيفضي هذا الصلح للتفرغ لدعوة باقي العرب، كما أن كثيرا من رجال قريش وأبطالهم كانوا ينتظرون الظروف الملائمة للاقتراب أكثر من حقيقة الإسلام، وليس هناك ظرف أكثر ملائمة من أجواء السلم، ومما يشهد لذلك أنه لم تكد تمضي أشهر قليلة على إبرام الصلح حتى أسلم عدد من أبطال قريش وفرسانهم، على رأسهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، ويرجح أنهم أسلموا أوائل سنة 7هـ، وقيل سنة ثمان.

ناهيك أن من ثمار الصلح وأغراضه ومقاصده -كما صرح بها القرآن- حقن دماء كثير من المؤمنين ممن أسلموا من أهل مكة يكتمون إيمانهم، ولو نشب القتال مجددا فسيخرجون مكرهين لأرض المعركة، مما يفضي إلى أن يصيب المسلم أخاه المسلم بغير علم، فيلحقهم العار، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[1].

ثم إنه من أهم ثمار الحديبية، أن تراجعت قر يش طواعية عن البند الرابع، بعد قيام الصحابيين أبو بصير بن عمرو الثقفي وأبو جندل بن سهيل بن عمرو، بتشكيل عصابة بسيف البحر، لاعتراض تجارة قريش، وتكبيدهم خسائر مادية فادحة، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الرحم أن يلغي ذلك البند، فأرسل إلى أبي بصير وأصحابه فقدموا المدينة.

وبعد تحييد قريش من دائرة الصراع ستنطلق الدعوة الإسلامية، تشق طريقها بثقة ودأب نحو أفق جديد، وهو نشدان عالمية الدعوة، وتصعيد النشاط العسكري تجاه خصوم الدعوة، ممن كانوا جزءا من تحالف الأحزاب يوم الخندق.

---

1 -سورة الفتح: 25.

## مكاتبة ملوك العالم والأمراء وتجسيد عالمية الدعوة:

وممن كاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم من الملوك والأمراء:

1-**كتابه إلى أصحمة بن الأبحر النجاشي ملك الحبشة:** أرسله مع عمرو بن أمية الضمري أواخر سنة 6 هـ، وكان نتيجته إسلام النجاشي.

2- **كتابه إلى المقوقس جريج بن متى ملك مصروالإسكندرية:** وقد أرسله مع حاطب بن أبي بلتعة، وقد رد المقوقس بكلام حسن، ولم يسلم، وأهدى له جاريتين هما: سيرين ومارية، وبغلة اسمها دلدل.

3-**كتابه إلى كسرى ملك الفرس:** أرسله مع عبد الله بن حذافة السهمي، وقد غضب كسرى ومزق الكتاب، وأرسل إلى عامله باليمن باذان، أن يأتيه بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليه رجلين، فلما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم أمهلهما حتى الغد، فأخبرهم بموت كسرى، فكان ذلك سببا في إسلام فرس اليمن.

4-**كتابه إلى قيصر ملك الروم:** حمله دحية بن خليفة الكلبي، فدفعه لعظيم بصرى ليوصله إلى قيصر، وفيه أن قصير الروم حاور دحية، وأرسل في طلب أبي سفيان ليسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكاد قيصر يسلم لولا خوفه على ملكه من النصارى.

5-**كتابه إلى المنذربن ساوى حاكم البحرين:** حمله العلاء بن الحضرمي، فأسلم المنذر وفرض على اليهود والمجوس الجزية، امتثالا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

6-**كتابه إلى هودة بن علي حاكم اليمامة:** أرسله مع سليط بن عمرو العامري، فأجابه بقول حسن، وأعطاه الهدايا، فمات ثم جاء بعده الكذاب مسيلمة.

7-**كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق:** لكنه أبى أن يسلم واستعظم أن يقول له النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه: ((أسلم يبقى لك ملكك)).

8-**كتابه إلى جيفر ملك عمان وأخيه عبد بن الجندري:** حمله عمرو بن العاص، وكان ذلك بعد فتح مكة، وقد كان لعمرو أثر كبير في حملهم على الإسلام بعد طول مفاوضة وإقناع[1].

## تصعيد النشاط العسكري بعد الحديبية:

## غزوة خيبر ووادي القرى:

بعد أن أمن المسلمون جانب قريش بعد صلح الحديبية، كان لا بد من القضاء على مركز الدسائس والمؤامرات بخيبر، الذين حزبوا الأحزاب، وحرضوا يهود قريظة وباقي الأعراب يوم الخندق.

وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون منيعة ومزارع فسيحة، يسكنها اليهود، توجد شمال المدينة بثمانين ميلا.

وقد خرج المسلمون إلى خيبر في المحرم من سنة 7 هـ، ولم يحضر المنافقون في هذه الغزوة، بل خرج فقط أصحاب الشجرة امتثالا لقوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[2]، وقيل: كانت خيبر وعدا من الله لنبيه لقوله تعالى: ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾[3].

واستنصرت خيبر غطفان بنصف ثمار خيبر، وكان عبد الله بن أبي بن سلول المنافق أرسل إليهم الخبر، وقدِمت غطفان لنصرة خيبر، وبينما هم في الطريق إذ سمعوا لغطا، فظنوا أن المسلمين أغاروا على ديارهم، فرجعوا إلى منازلهم وخلوا بين المسلمين وخيبر.

1 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص259 وما بعدها، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج3 ص63 وما بعدها، والخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، م س، ج1 ص147.

2 -سورة الفتح: 15.

3 -سورة الفتح: 20.

وسلك المسلمون طريقا من شمال خيبر حتى يمنعوهم من الفرار إلى الشام، فلما اقتربوا من خيبر وجدوا أربع طرق، وهي: حزن، وشاش، وحاطب، ومرحب، فولج النبي صلى الله عليه وسلم من مرحب لأنه كان يحب الفأل الحسن، وكان زادهم السويق.

ولما أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر دعا ربه متضرعا: ((اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، اقدموا بسم الله)) [1].

وأشار الحباب بن المنذر، الخبير الاستراتيجي في جغرافيا الحروب، بتغيير موقع تمركز الجيش الإسلامي، إلى مكان يكونون فيه بمأمن من مكائد الأعداء، وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم اللواء لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

وتضم خيبر ثمانية حصون كبيرة، تنقسم إلى شطرين: الشطر الأول يضم خمسة حصون، ثلاثة منها تقع في منطقة النطاة، وهي: ناعم، والصعب بن معاذ، وقلعة الزبير، والحصنان الآخران يقعان في منطقة الشق، وهما: حصن أبي، وحصن النزار.

أما الشطر الثاني، ويسمى الكتيبة، فيضم حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلالم.

وأول هذه الحصون فتحا هو حصن ناعم، وسيده مرحب الفارس اليهودي الشجاع، فخرج ودعا للمبارزة، فبرز له صحابي فقتله، ثم برز له علي فأجهز عليه، ثم قتل الزبير أخا مرحب.

ثم فتح المسلمون حصن الصعب بن معاذ، وهو أخصب حصون خيبر وأغناها، فأعطى منه النبي صلى الله عليه وسلم لبني سهم، ونهى عن أكل لحوم الحمر الإنسية.

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص329.

وكان اليهود كلما فتح المسلمون حصنا انتقلوا إلى آخر، فقصد المسلمون حصن الزبير وهو أكثر حصون خيبر منعة، فلما منع عنهم المسلمون الماء، خرجوا فقاتلوا أشد القتال، حتى قتل منهم عشرة، وفتح الحصن.

ثم فتح المسلمون حصن أُبي والنزار، واستخدم المسلمون لأول مرة المنجنيق في فتح حصن النزار، ولما فتح الشطر الأول من خيبر (النطاة والشق)، فرّ مقاتلو اليهود للشطر الثاني، وبه ثلاثة حصون، وهي: القموص، والسلالم، وحصن أبي الحقيق، ولم يطل القتال حتى نزل كبيرهم ابن أبي الحقيق على شروط المسلمين بالصلح، على أن يخرجوا من خيبر هم وذراريهم ولا يحملوا شيئا من المال والمتاع، وبذلك فتحت خيبر[1].

**توزيع الغنائم:** كانت غنائم خيبر خالصة لأهل الحديبية فكانوا 1400 رجل، منهم 200 فارس، فوزعت الغنائم على 3600 سهم، للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد، فحاصل ذلك 1800 سهم، أما النصف الآخر وهو 1800 سهم فكان لرسول الله والمسلمين، وأودع في بيت المال.

**أثر غنائم خيبر على أحوال المسلمين الاقتصادية:** روى البخاري عن ابن عمر: ((ما شبعنا حتى فتحت خيبر))[2]. وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها: ((لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر، ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم (عطاياهم) التي كانوا منحوهم إياها من النخيل، حين صار لهم بخيبر مال ونخيل))[3].

## أحداث تزامنت مع خيبر:

قدم جعفر بن أبي طالب وأصحابه الستة عشر من الحبشة يوم خيبر، وقدم معهم الأشعريون وكانوا بضعة وخمسين رجلا، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم لقدومهم، وقال:

---

1 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص332 وما بعدها، وصحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، وصحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر، وباب غزوة ذي قرد.

2 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر.

3 -نفسه.

((ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر))[1]، وقسم لهم النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم خيبر.

وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي بن أخطب، بعدما أشار عليه الصحابة بذلك، فعرض عليها الإسلام فأسلمت رضي الله عنها، وقد كانت في السبايا بعد مقتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره.

**محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم:** ذلك أن زينب بنت الحارث أعدت طعاما، فوضعت فيه شاة مسمومة، فمات بشر بن البراء بن معرور بعد أن أكل منها، أما النبي صلى الله عليه وسلم فأُخبر بذلك، فلما جيء بالمرأة قال لها: ما حملك على ذلك، قالت: قلت إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبيا فسيخبر، فأراد أن يعفو عنها، فلما مات بشر بن البراء قتلها قصاصا[2].

## نتائج غزوة خيبر:

استشهد في خيبر من المسلمين ستة عشر من الأنصار، وأربعة من قريش، ورجل من أشجع، ورجل من أهل خيبر، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون قتيلا.

فلما رأى يهود فدك ما حل بأهل خيبر من الذل والهوان، أسرعوا إلى مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم على النصف من ثمارهم، فكانت فدك خالصة للرسول صلى الله عليه وسلم، لأنها مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب.

**غزوة وادي القرى:** وسببها أن جماعة من اليهود والعرب اجتمعوا هناك لحرب المسلمين، فقصدهم النبي صلى الله عليه وسلم، فحصل ترام بالنبال، فقتل مدعم، خادم للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم ما لبثوا أن استسلموا، ونزلوا على أمر النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم استسلم يهود تيماء بعدما بلغهم خبر تساقط حصون خيبر ووادي القرى وفدك، وعقدوا الصلح، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم العهد والذمة.

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص139.

2 -المرجع نفسه، ج2 ص139-140.

وقد كانت هذه الحملة العسكرية المباركة حاسمة في القضاء على فتنة اليهود، وقطع دابر الذين ظلموا، لاسيما بعد تحييد قريش من دائرة الصراع عبر الصلح، فيكون المسلمون بذلك قد تخلصوا من جناحين من أجنحة الشر، التي شكلت ثالوث الأحزاب يوم الخندق، فلم يبق سوى جناح ثالث وهم أعراب نجد وغطفان، فشن المسلمون حملة تأديبية لهذه القبائل، لتخويفهم وترويعهم، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام في سبعمائة مقاتل، وحصل للناس جهد ومشقة شديدة، حتى وضعوا الرقاع على أرجلهم، ولم يحصل قتال، ثم تتابعت البعوث والسرايا[1].

## البعوث والسرايا بعد خيبر:

-**سرية أبان بن سعيد:** وغرضها ترهيب أعراب نجد، وكانت بالتوازي مع خيبر.

-**سرية غالب بن عبد الله الليثي** إلى بني الملوح في صفر من سنة 7هـ.

-**سرية زيد بن حارثة** إلى حِسَمي وهو موضع وراء وادي القرى، كانت في جمادى من سنة7 هـ.

-**سرية عمربن الخطاب** إلى تربة في شعبان سنة 7هـ، فلما بلغ الأمر هوازن، هربوا وتركوا ديارهم خوفا من عمر وأصحابه، وكانوا ثلاثين رجلا.

-**سرية بشير بن سعد الأنصاري** في ثلاثين رجلا إلى بني مرة، قتلوا جميعا إلا قائدهم بشير، فرّ وقصد فدك وهو جريح، وكانت في شعبان سنة 7هـ.

-**سرية غالب بن عبد الله الليثي** إلى بني عوال في رمضان من سنة 7هـ، وفيها قتْل أسامة بن زيد لمرداس بن نهيك بعد نطقه الشهادة، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك عتابا شديدا، وقال له: هلا شققت على قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب.

-**سرية عبد الله بن رواحة** إلى خيبر في شوال من سنة 7هـ، قتل فيها بشير بن رازم وثلاثون من أصحابه لغدره وسعيه لجمع غطفان على حرب المسلمين.

1 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص340-341، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص146-147، وصحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع.

-**سرية بشير بن سعد الأنصاري** في ثلاثمائة من أصحابه، لملاقاة جمع لغطفان كانوا يهمّون بالإغارة على أطراف المدينة، فتفرقوا ولم يلق كيدا، وكانت في شوال من سنة 7هـ.

-**سرية أبي حدود الأسلمي** إلى الغابة، حيث لاقى جمعا لقيس بقيادة جشم بن معاوية، فهزمهم واستاق الكثير من مواشيهم، ذكر ابن القيم أنها كانت قبل عمرة القضاء[1].

## عمرة القضاء:

كانت في ذي القعدة من سنة 7هـ، حضرها ألفان سوى النساء والصبيان، واستخلف النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا رهم الغفاري، وكانت مناسبة لإظهار قوة المسلمين وعظمة الإسلام، وبث الوهن والخوف في نفوس المشركين، وكان المشركون يرمقون المسلمين من أعلى جبل قعيقعان في شمال الكعبة، وفي هذه العمرة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بميمونة بنت الحارث، وسميت بعمرة القضاء، إما لأنها قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها جاءت عقب صلح، ولذلك تسمى أيضا بعمرة الصلح[2].

## البعوث والسرايا بعد عمرة القضاء:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد عمرة القضاء عددا من السرايا والبعوث:

-سرية ابن أبي العوجاء إلى سليم.

-سرية غالب بن عبد الله للانتقام لأصحاب بشير بن سعد بقرب فدك.

-سرية كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلح، في ربيع الأول سنة 8هـ لملاقاة جمع قضاعة، فقتلوا جميعا إلا رجلا من المسلمين.

-سرية شجاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلا إلى ذات عرق، لملاقاة هوازن في ربيع الأول سنة 8هـ، فغنموا بعض مواشي العدو دون أن يحدث قتال[3].

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص149-150.
2 -نفسه، ج2 ص151-152.
3 -المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص276.

## معركة مؤتة:

تعد مؤتة أضخم مواجهة عسكرية دامية يخوضها المسلمون في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، كانت في جمادى من السنة الثامنة من الهجرة، ومُؤْتة قرية بأدنى بلقاء الشام بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

وسبب هذه المعركة أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى عظيم بصرى، فعرض له عامل قيصر على البلقاء شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، وذكر الواقدي أنه لم يقتل لرسول الله رسول غيره، وكان قتل الرسل والسفراء يعد غدرا وإعلانا للحرب، فجهز لهم النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل، وأمر عليهم زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر، فإن قتل فعبد الله بن رواحة.

وأوصاهم بوصايا بليغة تعبر عن أخلاقيات الحرب وآدابها، منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغيروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعته، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء)) [1].

**تفاجؤ الجيش الإسلامي بقوة العدو:** نزل الجيش الإسلامي بمعان من أرض الشام، فنقلت إليهم العيون أن هرقلا خرج في مائتي ألف مقاتل، فشعروا بالمباغتة ولم يكن في حسابهم أنهم سيواجهون هذا الجيش العرمرم، فاجتمعوا للتشاور، فقال بعضهم نكتب للنبي صلى الله عليه وسلم نخبره، فاعترض عبد الله بن رواحة محمسا الجيش على القتال، وطلب إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، فالتقى الفريقان بقرية مشارف، وانطلق المسلمون في قتال لم تعهده الروم ولا الإنسانية من قبل ينشدون الشهادة، فاستشهد زيد بن حارثة، حِبّ رسول الله، ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، فاستشهد، وقد قطعت يداه، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة، فقاتل ببسالة، وهو يرتجز شعرا يحمس به المسلمين حتى استشهد رضي الله عنه، فسلم المسلمون اللواء لخالد بن الوليد، فقاتل حتى انقطعت في يده تسعة أسياف، وقد أخبر الله نبيه بالأمر

1 -المنصور فوري، رحمة للعالمين، م س، ج2 ص271.

وهو في المدينة، فكان يخبر أهل المدينة باستشهاد أصحابه الثلاثة، وعيناه تذرفان، ثم قال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم[1].»

## خطة خالد بن الوليد لإنقاذ الموقف:

أدرك خالد بن الوليد بحس القائد المحنك ورطة المسلمين، وأنهم غير قادرين على الإفلات من قبضة الروم، ففكر في مكيدة حربية يلقي بها الرعب في نفوس الروم، ويحط بها من معنوياتهم، حتى يتمكن من الانحياز بالمسلمين من غير أن يتمكن الروم من مطاردتهم.

فكانت خطته تقضي بإعادة ترتيب الجيش والتغيير من أوضاعه، فجعل المقدمة في الساق في المدينة، والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، فلما رأى الروم ذلك ارتعبوا وظنوا أن مددا جاء إلى المسلمين، فنشب القتال من جديد وبدأ المسلمون يتراجعون للخلف شيئا فشيئا، فخاف الروم وظنوا أنها مكيدة لجرهم إلى الصحراء فلم يطاردوهم، وتركوا المسلمين ينسحبون، واستشهد من المسلمين اثنا عشر رجلا، وقتل عدد كبير من الروم، وبذلك تمكن خالد من إدارة وتدبير أول مهمة عسكرية له مع المسلمين باقتدار.

## من آثار مؤتة ودروسها:

أدت معركة مؤتة إلى تعاظم سمعة الجيش الإسلامي، واندهاش العالم من شجاعة المسلمين، حتى لم يبق حي من أحياء العرب لم تصبه الرهبة من ذلك، فكيف يمكن أن يصدق أحد أن ثلاثة آلاف من مقاتلي الصحراء مرغوا في التراب أنف أعظم امبراطورية في العالم، ولعل جواب ذلك يلخصه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((نصرت بالرعب))[2].

فكان من النتائج المباشرة لهذه الغزوة إسلام كثير قبائل العرب البدو العتاة: بني سليم، وأشجع، وغطفان، وذبيان، وفزارة، وغيرهم ممن ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء دهرا طويلا، وقد أدرك هؤلاء أن دولة المدينة ليست من جنس الإمارات والممالك الوظيفية، التي غاية أصحابها أن يكونوا أتباعا وخداما لإحدى الإمبراطوريات الكبرى، على شاكلة الغساسنة

1 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام.
2 - صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر.

والمناذرة وتبابعة اليمن، بل هي كيان حر مستقل، يهدف لبناء أمة شامخة، تنهض بأعباء رسالة عظيمة كلفت بتبليغها للعالمين.

ومن دروس مؤتة أنها مكنت المسلمين من اكتشاف قائد عبقري بمواصفات استثنائية، وهو خالد بن الوليد (**سيف الله المسلول**)، كان هذا القائد العظيم، يحتاج إلى جيش عظيم، لتكتمل أركان العظمة، فجاءت مؤتة لتحقق ذلك، وتؤكد أن هذه العصبة المؤمنة قادرة على اقتحام الأهوال، وتحقيق المستحيل، ناهيك أنها منحت الدولة الإسلامية مشروعية عسكرية وسياسية، تؤهلهم لقيادة العرب وتوحيدهم ضمن كيان سياسي موحد ومستقل، لاسيما وأن العرب ظلوا عبر تاريخهم الطويل يعانون التمزق والتشرذم والاستضعاف، وهم الواقعون بين كماشة ثلاث قوى عالمية كبرى وهي الفرس والروم شمالا والأحباش جنوبا، وكأن العربي التائه في بيداء الصحراء، الغارق في غيابات الجاهلية والفقر، بدأ يتلمس طريقه نحو المجد والتحضر، وقد آن له أن يرفع رأسه في كبرياء وشموخ، دون أن ينحني لسلطان الفرس أو الروم، لاسيما وهو يستشعر اصطفاء السماء له بأن يكون مؤتمنا على الرسالة المقدسة من بين سائر الأقوام والأجناس والأعراق.

## ومن السرايا التي جاءت عقب مؤتة:

**سرية ذات السلاسل:** كانت في جمادى الأخيرة من سنة 8هـ، قادها عمرو بن العاص، أرسلت لبث الرعب في نفوس العرب الموالين للروم، ممن مالوا مع الروم ضد المسلمين يوم مؤتة، ثم لحقت بها سرية أبو عبيدة بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر، فكانوا جميعا خمسمائة رجل، وكان من أعمالهم أيضا أن فرقوا جمعا لقضاعة، كانوا يهمون بالإغارة على المدينة.

**سرية أبي قتادة** إلى خضرة بنجد لجمع من غطفان، فقتل منهم وغنم، وكانت في شعبان سنة 8 هـ.

## غزوة فتح مكة:

سببها أن قريشا خرقت هدنة الحديبية، بدعمها بالسلاح والرجال لبني بكر في شن غارتهم على خزاعة ليلا، وقتْل عشرين رجلا منهم، وكان ممن شارك في الهجوم على خزاعة

من قريش: مكرز بن أبي حفص، وصفوان بن أمية، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي، يستنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيات، يذكّرونه فيها بحلف خزاعة مع جده عبد المطلب، وبنسبهم من حيّي أم عبد مناف الخزاعية زوجة قصي، كما يؤكدون أن قريشا غدرت بهم، وقتلتهم مع بني بكر وهم على دين الإسلام، ومن ذلك:

يا رب إني ناشد محمدا حلفنا وحلف أبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وزعموا أن لست أدعوا أحدا
وهم أذل وأقل عددا قد جعلوا لي بكداء رصدا
هم بيّتونا بالوثير هجدا فقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمرو بن سالم، ونظر إلى غمامة فقال: إن هذا الغمام ليستهل بنصر بني كعب.

أدركت قريش خطورة الموقف، فخافت من بأس المسلمين، لاسيما وأن موازين القوة قد تغيرت لصالح المسلمين، عما كانت عليه أثناء إبرام الصلح، فطار أبو سفيان نحو المدينة لتثبيت الهدنة وإصلاح الأمر، فقصد ابنته زوج رسول الله أم حبيبة، وكانت أسلمت في فترة الهدنة، وهاجرت فتزوجها رسول الله، فمنعت أبا سفيان من الجلوس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم لأنه مشرك نجس، وقصد أبو سفيان الصحابة ليتشفعوا له عند رسول الله بعدما أبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يكلمه، وكان ممن قصدهم: أبوبكر، وعمر، وعلي، وفاطمة، فلم يجبه أحد، فرجع خائبا منكسر القلب[1].

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج3 ص291 وما بعدها، وابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، م س، ص225-226.

## استراتيجية الفتح:

قامت خطة الفتح على السرّية والمباغتة والتعمية، فبعدما نادى النبي صلى الله عليه وسلم في المسلمين من أهل المدينة، وسائر قبائل العرب التي دانت بالإسلام، وأرسل سرية في غير اتجاه مكة، حتى تنحرف الأخبار والظنون عن مكة.

وقد كاد موقف حاطب بن أبي بلتعة أن يفشل خطة المسلمين، ذلك أنه أرسل كتابا مع امرأة إلى قريش يعلمهم بتحرك المسلمين ناحية مكة، وكان دافعه أن يتقي قريشا لقرابته بمكة، فأخبر الله نبيه بالأمر، فأرسل صلى الله عليه وسلم من يأتيه بالكتاب، ثم عفا عن حاطب لأنه من أهل بدر، وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾[1].[2]

ثم تحرك الجيش الإسلامي في العاشر من رمضان سنة 8هـ، في عشرة آلاف مقاتل، وهم صيام، وقد لقيهم العباس، وكان قد خرج بأهله وعياله مهاجرا، ولقيهم أبو سفيان بن الحارث ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن أمية، فأعرض عنهما لما لقيه منهما من أذى وهجو، ثم عفا عنهما، فلما بلغوا مرّ الظهران، أوقدوا نارا عظيمة، وكان على الحرس عمر بن الخطاب.

ثم لقي العباس أبا سفيان بن حرب فقاده إلى حظيرة الإيمان، وذلك أنه أجاره وحماه من عمر والمسلمين، وأدخله على النبي صلى الله عليه وسلم، وأقنعه بأن يشهد شهادة الحق.

وكان أبو سفيان رجلا يحب الفخر، فتألفه النبي صلى الله عليه وسلم بأن أعطى أهل مكة ثلاثة خيارات للنجاة والأمان: ((من دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)).

ثم مرت كتائب الجيش على أعين أبي سفيان، كل قوم يحملون لواءهم، وأبو سفيان يسأل من هؤلاء يا عباس فيقول: مزينة أو غفار، فيقول مالي ولمزينة أو غفار، فقال أبو

1 -سورة الممتحنة: 1.

2 -أنظر: صحيح البخاري،كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح وما بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي صلى الله عليه وسلم، والسهيلي، الروض الأنف، م س، ج2 ص266-264.

سفيان حينها للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، فأجابه العباس إنها النبوة يا أبا سفيان، قال: فنعم إذن.

وأسرع أبو سفيان ليخبر قريشا بالقدر الذي حل بهم، ويعرض عليهم خيارات النبي صلى الله عليه وسلم للنجاة وتأمين أنفسهم، فتفاجؤوا بموقفه وهو سيد مكة وسخروا منه، ثم أدركوا جدية الموقف، فعزم بعضهم على القتال، منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو.

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا ومعه طلائع الجيش الإسلامي، وكان دخوله صلى الله عليه وسلم مكة في خشوع وتواضع، ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت، وعمد إلى طعن الأصنام بالقوس، وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما، ثم صلى في البيت وخطب فيهم: ((...يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء)).

وفي اليوم الثاني من الفتح، خطب النبي صلى الله عليه وسلم في أهل مكة، يبين لهم حرمة مكة فكان مما قال: ((أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب)).

وأرجع النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح البيت لعثمان بن طلحة، وفاء وبرا، وقال: ((خذوها يا آل طلحة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم))، ثم أمر بلالا فأذن على الكعبة. وكان نفر من قريش أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمهم، فقتل بعضهم واستأمن لآخرين دخلوا في الإسلام، منهم: عكرمة، وكعب بن زهير، وهبار بن الأسود، وكان تعرض لزينب بنت رسول الله أثناء هجرتها، حتى أسقطت جنينها.

ثم طمأن النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار بأن المحيا محياهم والممات مماتهم، وأخذ البيعة في جبل الصفا، فلما فرغ من بيعة الرجال أخذ البيعة من النساء، وعمر قاعد أسفل

منه، فكنّ يبايعنه على: ألا يشركن بالله، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، وكانت ممن بايعنه هند بنت عتبة متنكرة خوفا من أن يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم للذي صنعته بحمزة.

ولبث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوما، يدعوهم إلى الإسلام، ويفقههم في الدين، ثم نادى في أهل مكة بأن يكسروا أصنامهم، وأرسل خالد بن الوليد إلى نخلة ليحطم صنم العزى، وهو صنم قريش وكنانة، وبعث عمرو بن العاص ليحطم سواعا، صنم هذيل، وبعث سعد بن زيد الأشهلي ليحطم مناة، وهي صنم غسان والأوس والخزرج[1].

ولا شك أن غزوة فتح مكة قد عزّزت قوة المسلمين، وأضافت إليهم بعد المكانة العسكرية، شرف المكانة الدينية باستقرار الإسلام بمكة أم القرى، فأزيلت بذلك عقبة قريش، وفتح الباب أمام دخول العرب في دين الله أفواجا، لتستقبل الدعوة الإسلامية طورا جديدا، تينع فيه ثمار سنوات من الدعوة والكفاح والجهاد في سبيل الله، وهو طور التمكين داخل جزيرة العرب، والذي سيستهل بغزوة حنين وتبوك، وبنشاط دعوي واقتصادي واسع بشبه الجزيرة العربية.

## غزوة حنين[2]:

أعلنت قبائل قيس عيلان تمردها على المسلمين، وفيها بطون من هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وبنوهلال، يقودهم مالك بن عوف النصري، فساقوا معهم النساء والولدان والأموال ليكونوا مانعا لهم من الفرار، ونزلوا وادي أوطاس.

وبلغهم عن المسلمين ما أوهن قلوبهم، من أن رجالا بيضا على خيل بلق سيلقونهم، وأتى المسلمين بخبر العدو أبو حدود الأسلمي.

1 -أنظر: صحيح البخاري،كتاب: المغازي: باب غزوة الفتح، وابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، م س، ص230 وما بعدها، والمباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص282 وما بعدها.

2 -وردت أحداث هذه الغزوة ملخصة من المصادر الآتية: صحيح البخاري، كتاب: المغازي، وسيرة ابن هشام ج2 ص 449-500، وابن القيم، زاد المعاد، ج2 ص170 إلى 201، وابن حجر، فتح الباري، ج8 ص27 إلى 42.

وخرج المسلمون في أضخم جيش لهم يضم اثني عشر ألف مقاتل، عشرة آلاف ممن شهدوا فتح مكة، انضم إليهم ألفان من أهل مكة، وكان خروجهم في السادس من شوال من سنة ثمانية من الهجرة، وأُمّر على مكة عتاب بن أسيد، فخرجوا وقد قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة. وقد شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسبق جيش العدو إلى أرض المعركة، ونصب كمائنه ليلا في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وكانت خطتهم تقضي بمباغتة المسلمين، والشد عليهم، ورشقهم بالنبال. فلما حملوا على المسلمين ولوا راجعين، فانحاز النبي صلى الله عليه وسلم إلى جهة اليمين، ونادى في الناس: ((هلموا أيها الناس.. أنا رسول الله..أنا محمد بن عبد الله))، ولم يبق معه سوى عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته، وظهرت شجاعته في وجه الكفار وهو يقول: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب))، ثم استنصر ربه فقال: ((اللهم أنزل نصرك))، ونادى فيهم العباس: يا أصحاب السمرة، فقالوا: يا لبيك، ثم نادى على الأنصار، فتلاحقت كتائب المسلمين وحمي الوطيس، وما هي إلا ساعات قلائل حتى انكسر العدو وانهزم، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ونزل قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين * ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنزلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِين**﴾[1].

## غزوة الطائف:

وهي امتداد لغزوة حنين، إذ بعد انهزام المشركين طاردهم المسلمون، وألحقوا بهم الهزيمة حيثما حلوا، بأوطاس ونخلة والطائف، وكان فلولهم لجأوا للطائف فقصدهم المسلمون هناك، فحاصروا حصن مالك بن عوف مدة غير يسيرة، ما بين عشرين وأربعين يوما، وحصل ترام بالنبال استشهد فيه اثنا عشر مسلما، واستعمل المسلمون أسلحة ثقيلة نحو: المنجنيق والدبابة لاقتحام الحصن، فنادى النبي صلى الله عليه وسلم على العبيد، ووعدهم بأن يعتقوا إن نزلوا من الحصن، فنزل بضعة وعشرون، فيهم الصحابي أبو بكرة، ولما طال القتال أقفل المسلمون راجعين، وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم: ((آيبون تايبون

1 -سورة التوبة: 25-26.

عابدون لربنا حامدون))، وقيل يا رسول الله: ادع على ثقيف، فقال: ((اللهم اهد ثقيفا وائت بهم))[1].

## غنائم حنين:

غنم المسلمون من حنين غنائم وفيرة: سبي ستة آلاف رأس، و24 ألفا من الإبل، و40 ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وذكر أنه كان في السبي الشيماء فاختة بنت الحارث السعدية أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، فلما عرفها أكرمها ومنّ عليها وردها إلى قومها.

وحبس النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم بالجعرانة، ومكث بضع عشرة ليلة ينتظر قدوم وفد هوازن ومن معهم تائبين، ليرد عليهم أموالهم وذراريهم، فلما أبطأوا وزع الغنائم، وأغدق على سادات قريش حتى زاد طمع الأعراب، فكان يسد أفواههم بالعطايا، ولم ينل منها النبي صلى الله عليه وسلم سوى الخمس فرده عليهم، وظهرت سياسة تأليف القلوب في توزيع الغنائم[2].

**موجدة الأنصار:** لم يتفهم كثير من الأنصار السياسة النبوية الجديدة في توزيع الغنائم، وظن بعضهم أنه يحابي قومه قريشا وباقي العرب في العطايا على حسابهم، إذ لم ينالوا من غنائم حنين الوفيرة شيئا، وهم من وقعت عليهم رحى الحرب، وكانوا أنصار الله في الشدة والرخاء، فذكر ذلك سعد بن عبادة للنبي صلى الله عليه وسلم، فاجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم في حظيرة، فقال: ((يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى الله ورسوله أمن وأفضل...أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)).

1 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف.

2 -المباركفوري، الرحيق المختوم، م س، ص299.

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[1].

فكان ذلك درسا بليغا للأنصار، أدركوا من خلاله أن العطاء المادي ليس دليلا على التشريف ورفعة المكانة، وفيه دليل واضح على فضل الأنصار ومكانتهم التي لا يطاولها أحد، واختصاصهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نالوا بركة دعائه فهي سارية في نسلهم إلى يوم القيامة.

**قدوم وفد هوازن:** ثم قدم وفد هوازن مسلما، فيهم أربعة عشر رجلا، يتقدمهم زهير بن صرد وأبو برقان بن عبد العزى السعدي[2]، عم الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، يسألونه بكلام ترق له القلوب، أن يمن عليهم بالسبي والأموال، وتوجهوا إلى المسلمين بعد صلاة الغداة مستشفعين إليهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ردّ عليهم ما كان مع بني عبد المطلب من الغنائم والسبي، وخير المسلمين في ذلك، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتردد حي من أحياء العرب في ذلك، سوى ما كان من بني تميم وسيدهم الأقرع بن حابس، وبنو فزارة وسيدهم عيينة بن حصن، وأما بنو سليم فلم يطيعوا سيدهم العباس بن مرداس، ثم ما لبثوا أن ردوا على هوازن سبيهم، وكسا النبي صلى الله عليه وسلم السبي كسوة قبطية.

ثم اعتمر النبي الكريم بعد ذلك، وعاد إلى دار الهجرة إلى المدينة المنورة[3].

**إرسال العمال لجمع الصدقات:** وكان ذلك ابتداء من شهر المحرم من سنة 9 هـ، وقد دانت قبائل العرب للإسلام، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عماله لجمع أموال الزكاة من أحياء العرب وقبائلها، وهو عمل من أعمال الدولة، بينما تولى بعضهم جمع أموال الجزية من نصارى العرب.

---

1 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص449-450، صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان.

2 -ذكر ابن سعد في الطبقات في ترجمة حليمة السعدية نقلا عن الواقدي أن اسمه: أبوثروان.

3 -ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص252-253.

**السرايا التأديبية:** وأهمها سرية عيينة بن حصن ومعه خمسون فارسا إلى بني تميم في محرم سنة 9 هـ، وكان بنو تميم يحرضون القبائل على عدم أداء الجزية، فهجموا عليهم وأحرزوا سبيا كثيرا وغنائم وفيرة، فجاؤوا المدينة يطلبونها، وأظهروا الفخر والمباهاة فتكلم خطيبهم، فرد عليه خطيب الإسلام قيس بن ثابت بن الشماس، وتكلم شاعرهم، فرد عليه حسان بن ثابت، فقالوا: ما عند محمد خير مما عندنا، فأسلموا فردّ عليهم سبيهم.

وكانت باقي السرايا في هذه الفترة هي: سرية قطبة بن عامر إلى خثعم، وسرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى كلاب، وسرية علقمة بن مجزر المدلجي، وسرية علي بن أبي طالب إلى طيء، فكانت هذه السرايا إما لتأديب قطاع الطرق، أو لهدم الأصنام، كما حصل مع سرية طيء والتي أصاب المسلمون فيها أموالا وسبيا لعدي بن حاتم الطائي، ثم قدم عدي إلى النبي مسلما فرد عليه حاجته[1].

## غزوة تبوك:

كانت بدايتها في رجب سنة تسع هجرية، وسببها ما خلفته مؤتة في نفوس الروم من الخوف من انبعاث العرب، وتعاظم طموحهم نحو الاستقلال عن الروم، فجمعوا جموعهم يريدون ملاقاة المسلمين، فشغل النبي صلى الله عليه والمسلمون وسلم بهذا الجمع، فاعتزل نساءه شهرا حتى ظن الناس أنه طلقهن، وكان الجميع يترقب هجوما للروم على المدينة.

فخرج الروم ومن معهم من نصارى العرب من لخم وجذام إلى البلقاء في أربعين ألفا، وكان الفصل صيفا، وأعلن النفير العام بالمدينة ومكة وقبائل العرب للتجهز لقتال الروم، فتسابق المسلمون رغم شدة الحر وقلة المؤن، وقد حكت سورة التوبة فصولا من تلك الاستعدادات، وما كان من حاجة بعض المسلمين الذين يأتون النبي صلى الله عليه وسلم يريدون الجهاد، ولم يجد ما يجهزهم به، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ**﴾[2]، فتسابق الصحابة في البذل والعطاء فجهز عثمان بن عفان تسعة مائة بعير ومائة فرس في سبيل الله، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما ضرّ عثمان ما عمل

1 -ابن القيم، زاد المعاد، م س، ج2 ص581.

2 -سورة التوبة: 92.

بعد اليوم))، وجاء عبد الرحمن بن عوف والعباس وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة بمال كثير، وجاء الصديق بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، ولم يبخل غير المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم**﴾[1].

وخرج الجيش الإسلامي في ثلاثين ألف مقاتل، وهو أكبر حشد عسكري يتجمع في تاريخ العرب القديم لمواجهة عدو خارجي، مما صعب مأمورية تجهيز الجيش بالمؤن، فسمي بجيش العسرة.

ولما بلغ الروم خبر الزحف الإسلامي هابت المواجهة، فتفرقوا في بلادهم ورغبوا عن القتال، فزاد ذلك من هيبة الجيش الإسلامي، فسارعت عدد من القبائل العربية الحليفة للروم، لاسيما من نصارى العرب، إلى مصالحة المسلمين وإعطاء الجزية، منهم: أيْلة، ودومة الجندل، وتيماء، وجرباء، وأذرح... وبتحول ولاء عرب الشمال من الروم إلى الإسلام، توسعت حدود الدولة الإسلامية، وامتد نفوذها وسلطانها حتى تخوم الشام، وقد استغرقت غزوة تبوك خمسين يوما.

## قضية المخلفين:

كانت تبوك امتحانا أخيرا لتمييز المؤمنين من المنافقين، وذكر الواقدي أن المخلفين من أهل المدينة بضع وثمانون ونحوهم من أعراب غفار، وقد صار التخلف علامة على النفاق، وقد جاؤوا يقدمون الأعذار فاستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من المخلفين ثلاثة نفر من المؤمنين، هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فاختاروا الصدق، ولم يدلوا بالأعذار الكاذبة على شاكلة أهل النفاق، فقاطعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه خمسين ليلة، حتى اشتد عليهم الأمر، فأنزل الله توبتهم من فوق سبع سماوات: ﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيم * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ**

1 -سورة التوبة: 79.

**خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[1].

## أحداث رافقت غزوة تبوك:

-رجم المرأة الغامدية التي أقرت على نفسها بالزنا، وذلك بعد فطم ولدها.

-وفاة النجاشي رضي الله عنه، وإقامة صلاة الغائب عليه بالمدينة.

-نزول حكم اللعان بين عويمر العجلاني وامرأته.

-وفاة أم كلثوم بنت النبي صلى الله عليه وسلم، فحزن عليها، وقال لعثمان: ((لو كان عندي ثالثة لزوجتكها)).

-وفاة رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، ونزول القرآن ينهى عن الصلاة عليه.

-تأمير أبي بكر ليحج بالناس ومنع المشركين ومظاهر الشرك بالحج، وإعلان نهاية الوثنية والشرك بجزيرة العرب.

-دخول الناس في دين الله أفواجا، ووفودهم على النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم وفد بني عبد القيس، ودوس، وصداء، وعذرة، وثقيف، وهمدان، وبني فزارة، ونجران، واليمن.

-إسلام كعب بن زهير، وكان قد أهدر دمه لما يذكر من هجائه للنبي صلى الله عليه وسلم.

-إسلام فروة الجذامي، وهو من كبار قادة الجيش الروماني، وأمير معان، فعرض عليه الروم الرجوع عن الإسلام فأبى، فصلبوه بعفراء بفلسطين.

-قدوم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، ووفد بني عامر بن صعصعة، ووفد تجيب، ووفد طيء، وفيهم زيد الخيل، الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير[2]...

1 -سورة التوبة: 117-118.

2 -أنظر: ابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص515 إلى 542، وابن القيم، زاد المعاد، م س، ج3 ص2 إلى ص26، وابن حجر، فتح الباري، م س، ج8 ص110 إلى ص 126.

والخلاصة أنه بعد غزوة تبوك لم يبق حي من العرب لم يقدم ولاءه لدولة المدينة، ذلك أن تبوك رفعت من رصيد هيبة المسلمين، وقطعت دابر الشرك والنفاق، وأعطت الأمل بتشكل قوة إسلامية عربية موحدة، لأول مرة في التاريخ تحت لواء الدين الجديد: الإسلام، فاجتمع للعرب الولاء للإسلام وللعروبة.

لكن التوسع السريع رغم آثاره الإيجابية، في توسع الدعوة وانتشار الروح الإسلامية، القائمة على الإيمان بالله وحده وإقامة العدل في الأرض، في سائر ربوع الجزيرة العربية، فقد انطوى ذلك على ظواهر سلبية، تمثلت في بروز فئة الأعراب التي أثقلت كاهل الدولة الإسلامية، وستشكل في المستقبل مادة خصبة للردة والتمرد والاضطراب.

## حجة الوداع:

بعدما رأى النبي الكريم ثمار دعوته المباركة قد أينعت، واستوت على سوقها، جاء أوان الفراق وفق ما تقتضيه سنة الله في الخلق، التي لا تستثني أحدا.

فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم قصده بالحج، وتهيأ للرحيل إلى مكة في ذي القعدة من سنة 10 هـ، فأهل بالحج والعمرة، وفيها أنه ألقى فيهم خطبة بعرفة، وهي خطبة حجة الوداع، وقد حضرها مائة ألف وأربعة وعشرون وقيل وأربعة وأربعون، ومما جاء فيها:

((أيها الناس اسمعوا قولي لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا)).

((إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم ابن ربيعة بن الحارث –وكان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل- وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله)).

((فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)).

((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله.

أيها الناس إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا ولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم)) [1].

وكان الذي يصرخ في الناس، يسمعهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ربيعة بن أمية بن خلف[2]، فلما أكمل النبي صلى الله عليه وسلم من الخطبة، نزل عليه قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[3]، فبكى عمر وقال: ليس بعد الكمال إلا النقصان.

ثم خطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر خطبة ثانية، حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شهباء، أعاد فيها التأكيد على كثير مما ذكره في الخطبة السابقة، ومن ذلك: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت، قالوا نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع))[4].

وقد كانت خطبة النبي الكريم طافحة بمعاني الرأفة على أمته، فائحة بإشارات الوداع، تضمنت إلحاحه صلى الله عليه وسلم على إسداء النصح لأمته، وتحذيرهم من الظلم وسفك الدماء، وتشتت الكلمة، حتى تستمر دعوة الإسلام في قوة وعزة ومنعة، تحمِل نور الهداية والخير لكل الإنسانية، حيثما وجدت على مدار الأزمنة والأعصر.

---

1 -انظر: صحيح مسلم، كتاب: الحج، باب حج النبي صلى الله عليه وسلم، وصحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع، وابن هشام، السيرة النبوية، م س، ج2 ص603-605.

2 -ابن هشام، السيرة النبوية م س، ج2 ص605.

3 -سورة المائدة: 3.

4 -صحيح البخاري، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى من حديث أبي بكرة.

وكانت آخر البعوث التي أنفذها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، جيش أسامة بن زيد، لترهيب الروم وبعث الثقة لدى عرب الشام في قوة الإسلام، وقدرته على تحريرهم من براثين الروم، لاسيما بعد توالي حملات التأديب والانتقام من قبل الروم، ضد كل من ثبت لهم ميله نحو الإسلام، كما فعلوا بالقائد فروة الجذامي بعد دخوله في الإسلام، وإرساله الهدايا السخية للنبي صلى الله عليه وسلم.

## اللحاق بالرفيق الأعلى:

اعتكف النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان من سنة 10هـ، لمدة عشرين يوما، وتدارس القرآن مع جبريل مرتين، ثم مرض بعدها صلى الله عليه وسلم في 29 من صفر سنة 11هـ، وشكا ألما شديدا في رأسه، بعدما حضر جنازة بالبقيع، وصلى بالناس وهو مريض 11 يوما، وجميع أيام مرضه 13 أو 14 يوما، وأذنت له زوجاته أن يمرض في بيت عائشة، فقضى صلى الله عليه وسلم في بيتها الأسبوع الأخير من حياته المباركة، فكانت عائشة الصديقة تقرأ عليه المعوذتين والأدعية التي حفظتها منه، وتنفث عليه رجاء بركتها.

وكان آخر ما أوصى به ألا يتخذ قبره مسجدا أو عيدا، وأوصى بالنساء خيرا وبالعبيد والإيماء، وأوصى بإخراج اليهود من جزيرة العرب، وأوصى بالصلاة، وبأن يأمروا أبا بكر فليصل بالناس.

وقبل يوم أو يومين وجد في نفسه خفة فخرج إلى المسجد للوداع الأخير، ووجد أبا بكر يصلي بالناس الظهر، فدخل بين رجُلين، ثم تأخر الصديق عنه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي جالسا وأبو بكر يصلي لصلاته.

وكان عليه الصلاة والسلام وهو على فراش الموت يجد أثر السم، من الطعام الذي أكله بخيبر، فأخبر بذلك عائشة رضي الله عنها[1].

1 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته.

وفي اليوم الأخير أعتق صلى الله عليه وسلم غلمانه، وتصدق بما معه من مال، وهو سبعة دنانير، ووهب للمسلمين أسلحته، واستعارت عائشة في تلك الليلة الزيت للمصباح من جارتها، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من الشعير.

وفي فجر يوم الاثنين اثنا عشر ربيع الأول من السنة 11هـ، كشف النبي الكريم سترة الحجرة ليطل على أصحابه، وهم في الصلاة إطلالة الوداع الأخير، ثم تبسم، وظن أبو بكر والمسلمون أنه يريد أن يأتي للصلاة، فكادوا أن يفتتنوا في صلاتهم، فأشار إليهم بيده أن أتموا، ثم دخل الحجرة، ولما وصلت الضحى نادى على فاطمة، فسارّها بشيء فبكت، ثم سارها بشيء فضحكت، وذلك أنه أخبرها بأنه لاق ربه، وأنها ستكون أول أهله لحوقا به، وبشرها بأنها سيدة نساء العالمين.

واشتد به الوجع صلى الله عليه وسلم، وبدأ الاحتضار، فأسندته عائشة إليها، فكان يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات[1].

ثم رفع يده وإصبعه، وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه في همس، وهو يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى[2]، كررها ثلاثا ثم مالت يده، ولحق بربه في ضحى يوم الاثنين 12 ربيع الأول من سنة 11هـ، وقد أتم من العمر ثلاثا وستين وأربعة أيام[3].

## تفاقم أحزان الصحابة وإظلام المدينة لفقد النبي صلى الله عليه وسلم:

ما إن نعي صلى الله عليه وسلم حتى أظلمت أرجاء المدينة وتوشحت بالسواد، قال أنس: ما رأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما رأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم[4].

1 -نفسه.

2 - نفسه، باب: آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم.

3 -المباركفوري، ص335.

4 -مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه.

ونعته الزهراء بقولها: ((يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه))[1].

وتفاقمت أحزان الصحابة فذهل بعضهم من هول الموقف، وأنكر بعضهم ذلك كما فعل عمر، فقام الصديق موقفا عظيما، ثبت الله به الصحابة، فصعد المنبر فقال: «من كان منكم يعبد محمدا فمحمد قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِين**﴾[2]، فما إن تلا أبوبكر هذه الآية حتى هوى عمر على الأرض، ما تقلّه رجلاه، وكأن الناس لم يسمعوا بهذه الآية إلا بعد أن تلاها أبو بكر، فتلقفوها عنه، فكانوا يتلونها ويسمعها بعضهم لبعض.

ثم جهزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغسله علي ومعه العباس والفضل وقثم بن العباس، وشقران مولى رسول الله، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولي، ولم يجرّدوه من قميصه، وكفنوه في ثلاثة أثواب بيض، واختلفوا في موضع الدفن، فأشار بعضهم بدفنه بالبقيع، فقال الصديق بأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض))[3]، فرفع أبو دلجة فراشه الذي توفي عليه فحفر تحته وجعل القبر لحدا.

ثم دخل الناس الحجرة أرسالا يصلّون على رسول الله عشرة فعشرة، وصلى عليه بنو هاشم، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان.

وكانت المناقشات في السقيفة قد شغلت بعض الصحابة عن جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان دفن جسده الشريف صلى الله عليه وسلم، من ليلة الأربعاء 13 ربيع الأول من سنة 11 هجرية.

فاللهم صل على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المومنين وذريته وأهل بيته كما صليت على سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

---

1 -صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته.

2 -سورة آل عمران: 144.

3 -مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد رضوان وشريف عبد الله، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 1426هـ/2005م، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كفن الميت، حديث رقم الحديث: 518، ص95.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فرغ من كتابته وتصحيحه وتنقيحه بالدار البيضاء، بتاريخ: 27 محرم 1443هـ، الموافق ل 4 شتنبر 2021.

## قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم.

-الإسلام والحضارة الغربية، محمد حسين، دار الفرقان، جدة، دط، دت

-البداية والنهاية، ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمرو الدمشقي، مطبعة السعادة، مصر، 1932.

-بلوغ الأرب في أحوال العرب، الألوسي محمد شكري، مكتبة ابن رشد، الرياض، ط1، 1422هـ.

- تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي أبو الفرج جمال الدين، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1342هـ/1924م.

-تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي، قسم السيرة النبوية، تحقيق: نشاط غزاوي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار الفكر، دمشق، 14014هـ/1948.

-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ/1987.

-تاريخ الأدب العربي، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ/ 2000م.

- تاريخ الإسلام، شاكر أكبر خان نجيب آبادي، مكتبة رحمت ديوبند، الهند، دت.

-الثقات، ابن حبان، محمد بن حبان السبتي بن أحمد البستي، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند، ط1، 1401 /1981م.

-الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط1، 1272هـ/1855م، ودائرة الكتب العلمية، بيروت.

-جمل من أشراف الأنساب، البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، 1417هـ/1997م.

-جوامع السيرة النبوية، ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2003م.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: عماد البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دت.

- الخصائص الكبرى، السيوطي جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ/1985م.

- الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر النمري، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1386هـ/1966م.

-دلائل النبوة، أبونعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، تحقيق: محمد رواس قلعجي وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406هـ/1986.

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، بيروت، ط1، 1408هـ/1988.

-الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي، دار المعرفة، بيروت، 1398هـ/1978م.

-رحمة للعالمين، محمد سليمان المنصور بوري، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م.

-الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية، صفي الرحمن المباركفوري، الدار العالمية لكتاب، دط، 1431هـ/2010م.

-زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط27، 1415هـ/1994م.

-سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجتساني، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط1، 1430هـ/2009م.

سنن الترمذي أو الجامع الكبير للترمذي، أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، الرياض، ط2، 1437هـ/2016م.

-السير والمغازي، ابن إسحاق محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط1، 1398هـ/1978م.

-السيرة النبوية، ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت218هـ)، تحقيق: محمد همام عبد الرحيم سعيد ومحمد أبو صعيليك، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1409هـ/1988م.

-السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية، مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ط1، 1412هـ/1992م.

-سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، الصالحي الشامي محمد بن يوسف، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ/1993م.

-السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط6، 1415هـ/1994م.

-السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط13، 1337هـ-2016م.

-السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان أبي حاتم التميمي البستي، تحقيق: سعد كريم الحقي، دار ابن خلدون، الاسكندرية، 1425هـ.

-صحيح البخاري، أبوعبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجحفي، تقديم: أحمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت، دت.

-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسبوري، تحقيق: نظر الفاريابي، دار طيبة، القاهرة، ط1، 1417هـ/ م2006.

-صحيح ابن حبان ابن حبان ابن أبي حاتم التميمي البستي، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط1، 1390هـ/1980م.

-الطبقات الكبرى، ابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م.

-فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن باز دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

-فقه السيرة، سعيد رمضان البوطي، دار الفكر للنشر والتوزيع، دت.

-المغازي، الواقدي محمد بن عمر بن واقد، تحقيق: مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1384هـ/1964م.

-المعارف، ابن قتيبة أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري(ت276هـ)، تحقيق: تروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط2، 1388هـ/1966م.

-محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري بك، تحقيق: محمد العثماني، دار القلم، القاهرة، ط1، 1986/1406.

-المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي أبو زكرياء محيي الدين يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط2، 1414هـ/1994م.

-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مطبعة القدسي، ط1، القاهرة، 1414هـ/1994م.

-الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد رضوان وشريف عبد الله، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 1426هـ/2005م.

-المسند، ابن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ/2002.

-مصادر السيرة النبوية وتقويمها، فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ط3، 1431هـ-2010م.

-المستدرك على الصحيحين، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، مطبعة النصر الحديثة، الرياض، دت.

-الوفا بأحوال المصطفى، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعدية، الرياض، دت.

-الموسوعة العربية. الرابط: http://arab-ency.com/ar

# المحتويات

## القسم الأول

**مدخل لدراسة السيرة النبوية:**
**أهميتها وخصائصها ومصادرها.**



## القسم الثاني

**حالة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة:**
**صناعة على العين الربانية**

## القسم الثالث

### الدعوة الإسلامية بمكة:
### من البعثة إلى الدعوة خارج مكة



## القسم الرابع

### توطين الدعوة:
### من الدعوة خارج مكة والبحث عن وطن آمن للدعوة الإسلامية إلى الهجرة وبناء المجتمع الجديد

القسم الخامس

**مرحلة الكفاح الدامي:**

**من غزوة بدر إلى الأحزاب، الدعوة تدافع عن نفسها.**



القسم السادس:

**الطريق نحو الفتح المبين:**

**من الحديبية إلى فتح مكة**

# هذا الكتاب

ومما جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) [سورة الأحزاب: 21]. هذه الأسوة الحسنة كانت في زمن الصحابة ماثلة أمامهم، متحركة بينهم، يستنيرون بتوجيهاته، ويستفسرونه عما أشكل من أمورهم، ويمتثلون أوامره ونواهيه، لكن اللاحقين من أجيال المسلمين، المستمسكين بتعاليم دينهم، ظل كتاب الله نور دربهم، وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم الفعلية والقولية والتقريرية مصدرا ملهما لاستقاء الأحكام في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وسائر أحوالهم. ولم ينفك ذلك عن تحري أخبار نبيهم صلى الله عليه وسلم ووقائع بعثته، ومسار دعوته، وتربيته وتعليمه، وأسس بناء دولته، وأنباء حروبه وسلمه، وقضائه وعدله، وإدارته واقتصاده، وغير ذلك مما ميز ظهور الدعوة الإسلامية، ورافق تغلغلها وانتشارها بمكة والمدينة وجزيرة العرب.

لقد كانت تلك الأحداث ملهمة للمسلمين عبر الأزمان، وبلسما لقلوبهم يتناقلونها جيلا بعد جيل، استصحابا لمدلول الآية الكريمة: ((وذكرهم بأيام الله)) [سورة إبراهيم: 5].

من هذا المنطلق، فإن الكتابة في السيرة النبوية لا تنحصر في عصر دون آخر، ولا ينقضي الإلمام بأطرافها ومعانيها وعِبرها ومختلف أبعادها.